الهيئة العامة لقصور الثقافة
إقليم وسط الصعيد الثقافى
فرع ثقافة سوهاج

رواية سكة سفر

رواية

علي السيد محمد حزين

رواية إجازة

زحام , صخب, ضجيج , يصم الأذان , ويملأ المكان , ويمخر الأعصاب , ويعطل الحواس ..

وأنا أطل برأسي كالحرباء من النافذة المكسورة , ولا أدري كم مضى من الوقت , وقد ملأني الضيق , وملني الضجر,...

والقطار سيقوم من المخزن الساعة الربعة عصرًا , والناس تُقبل إليه تباعًا

أصوت القطارات التي تأتي وتروح , مع أصوات العربات التي تقطع الشارع بأزيزها المزعج مع أصوات الناس الذين ينادون ويتصايحون على بعد أمتار, يوتر الأعصاب , ويصدع الرأس ويقتلع الهدوء من النفس المتعبة ...

ـ لو سمحت يا دفعة , من فضلك ,

التفتُ خلفي لأتأكد أن صاحبة هذا الصوت تقصدني , ابتسمتُ لها , فابتسمت لي , وقالت:

ـ هو فاضل كتير على القطار ويتحرك ..؟!!

ـ مش كتير , هانت

ـ مش دا قطار الصعيد , اللي هـ يقف على رصيف " ١١ "

ـ .....

قالت هذا وهي قلقة متوترة من شيء ما بدا عليها , وكنتُ من حين لأخر أنظر إليها , وأنتظر لربما تسألني عن شيء أخر , وكانت تغيب وتنظر من النافذة المجاورة , وكأنها تنتظر أحدا يأتي لها من بعيد ,

لم أشغل نفسي بها كثيرا , وعدت أرقب كل شيء يدور من حولي , وأتابع حركة الناس التي تملأ الشوارع والمحلات , والمقاهي , واليافطات العريضة المعلقة , هنا وهناك , والتي لا أعرف شيئًا عن أصحابها البتة , واليافطات المعلقة لا تكاد تخطئها العين في كل مكان .....

ها هي العربات تجري بسرعة مجنونه ذهابا وإيابا , مخلفة وراءها كثيباً من الدخان الأسود الكثيف وكأنها سحابة سوداء , تعيق حركة المرور المعطل على الجانب الأخر من الطريق ,

أرسلتُ عيناي حيث العمارات الخرسانية الشاهقة الممتدة بطول الطريق ن, وتخيلتُ للحظة بأني من سكان تلك المنطقة المزدحمة, وسألت نفسي ماذا كنت سأفعل حينئذٍ, ولكن سرعان ما تخليت عن تلك الفكرة الغريبة ولم أستطع أن أتمادى فيها وأواصل معها حتى النهاية , فأنا إنسان مرهف الحس , بطبعي أحب الهدوء , والصمت , وأكره الصخب , والضجيج المزعج لأنه يجلد أعصابي, ويشتتني, ويزعجني, ويجلب لي التوتر والقلق والضجر والعصبية , فكيف لو كان الأمر كما تخيلت , شيء فظيع بالطبع .. !! .....

" مجرد فكرة مجنونة مرت برأسي , وخيالا عابرا في بالي , لكني سرعان ما تخليتُ عنه , ولم أستطع أن أواصل في هذا الخيال , فكيف لو كان الواقع كما تخيلتُ, مستحيل طبعا, فأنا أحب بلدي " طهطا " وأعشقها , ...

" مسقط رأسي الحبيب , وفيها أبي, وأمي , وأصدقائي , والذكريات الجميلة, وأيام الطفولة والصِّبا , وحبي القديم هناك في مسقط رأسي في وسط الصعيد " ....

الناس علي قضبان السكة الحديد يمشون كالنمل , مثنى, وفرادى, وجماعات , مترجلون , بعضهم يحمل أمتعته علي كتفه , والبعض الأخر يحمل حقائبه بين يديه , وأخرون يحملون كراتين ورقية , ومنهم من يحمل جُوالا , ومنهم من يحمل أولاده الصغار, وأنا أتابعه كل هذا من نافذة القطار في صمت , وباهتمام , وفي هدوء تام وعلى طريقة الاستقراء والتتبع , وصديقي الجالس بجواري منذ ركبنا القطار يغط في ثبات عميق , ...

شعرتُ بالإرهاق والتعب يفت في جسدي المتهالك , والإنهاك قد بلغ مبلغا مني, لكني كنتُ سعيدا جدا لأني في إجازة ثمانية أيام بلياليهم , ...

وأنا جالس في مكاني المفضل بجوار النافذة أتأمل صديقي النائم بجواري في هدوء .....

" بصراحة أنا أحسده على هذا النوم العميق , وكيف استطاع أن يفعلها ..؟!!, كيف استطاع أن ينام وسط كل هذا الزحام والضجيج المزعج المستفز ..؟!!, وكأن النوم يضعه في جيبه ويستدعيه وقتما شاء, وحيث شاء , لا أدري كيف نام في هذا الجو المزعج , الخانق ..؟!. "

ألقيتُ نظرة أخرى عليه لأتأكد أنه نائم " ,

يداه ملفوفتان على صدره , متكئا على المقعد الخشبي , رأسه مائلةً قليلا على كتفه, وكرشه الممتد أمامه فوق رجليه الممددة للأمام, وصوت شخيره المزعج يملأ المكان , ...

ضحكتُ في نفسي وأنا أزفر زفرة طويلة حامية متقطعة , وقلت في نفسي : ..

ـ يا بختك يا عم , بتعرف تنام وقت ما تحب, وفى أي مكان..!

أخذتُ نفسا عميقا حبسته في صدري , واسترخيت.....

والسائرون بين القضبان يأتون تباعا , برهة من الزمن , واصلتُ استرخائي فيها على المقعد الذي فزتُ به أخيرا بعد معركة ضارية , وسباق مع الزمن حتى لا يأخذه غيري ,

أخرجتُ سيجارة , وضعتها في فمي , أشعلتها بعود ثقاب, وأنا أتابع الزحام الذي لا ينقطع وتدافع الأجسام على الأبواب ....

وكان زجاج العربات يعكس أشعة الشمس المائلة للغروب ..

نظرتُ في ساعة معصمي , كانت تشير للرابعة إلا الثلث عصرا , وشعرتُ للحظة أنى انتقلتُ إلى كوكب الصين العظيم , أو لعالمٍ أخر , لكن بلدي الأجمل طبعا بكل تأكيد , إنها القاهرة يا سادة .....

" يا لها من مدنية جميلة جُمعت فيها كل الحضارات, واستطاعت أن تهضمها , كم مر عليها من ثقافات , لم تستطع أن تغير من هويتها وطباع أهلها الجميلة , وكم رماها الأعداء

بسهامهم فلم يستطيعوا أن ينالوا منها بل انتصرتْ هي عليهم جميعا , القاهرة أم الدنيا, مصر أم الدنيا , ست كل عصر , مصر التي في خاطري وفي دمي , مصر التي ذُكرت في القرآن , مصر التي لم تنحني أبدا عبر التاريخ إلا لخالقها سبحانه وتعالى " , ...

الذكريات الجميلة تتزاحم في رأسي , وتتلاعب في مخيلتي , وأنا مستسلم لها تماما ...

تذكرتُ بلدي الحبيب " طهطا " وتذكرتُ بيتنا الجميل , أبي , وأمي , وأخوتي , وأصحابي , وتذكرت أيضا فتاتي الجميلة تلك التي أحببتها , كانت ذات السابعة عشر ربيعاً , تلك التي تشبه نجوم السينما في الحسن الجمال , والطلة البهية , وراحت الذكريات تستدعيني وتأتي ليَّ من بعيد , وأخذتْ تطل من رأسي , وحضرت بقوة من الماضي البعيد , لتداعب خيالي بقوة .....

" كنت أنتظرها كل صباح , وهى ذاهبة إلى المدرسة, وهى عائدة إلى البيت, وهي في طريقها إلى الدرس , فكانت تجدني أمامها في كل طريق تمر به , أو تمشى فيه , كنتُ أمشي وراءها وخلفها , القدم بالقدم , وأنا أحاول لفت نظرها , وأشد الانتباه , مرة بنظرة, وأخرى بابتسامة وثالثا بكلمة طيبة , حتى استطعت أخيرا وبعد معاناة مضنية أن ألفت نظرها, وأشُد انتباهها لي, فقررتُ بيني وبين نفسي بأن أكتب لها رسالة حب في جواب , وأرسلته لها بطريقة ما ....

" أحببتها حبا لا يوصف , أحببتها لدرجة الجنون الانفصامي , أحببت ذكائها , أناقتها , خفة ظلها , روحها المرحة , وحضورها الجميل , أحببت شعرها الطويل الناعم , ورائحتها الطيبة التي هي أطيب من كل عطر اشتممته في حياتي , وأحببتُ كل شيءٍ فيها , وحبي لها كان عذريا , لا يشوبه شيء " , ...

أذكر مرة طلبت منها معادا , وانتظرتها في المكان الذي حددته لها وكانت المفاجأة, حضرت , نعم حضرت, والتقينا , وكانت تلك هي المرة الأولى, وكانت مفاجأة جميلة , وكنت سعيدا جدا بها, وكنتُ غير مصدق إنها ستأتي ولكنها جاءتْ ووفت , سلمتُ عليها , ووضعتُ يدي في يدها , وكانت تلك هي المرة الأولي أيضا التي لامستْ يدي يدها, وكنت سعيدا جدا بهذا , وأحسستُ حينها كأني أطير في السماء , وشعرت ساعتها بدفء , دفء لذيذ يسري وينتشر داخلي , وقوة هلامية راحت تسحبني من نفسي, وأحسست بهالة من نور سماوي راحت تسكنني, وشعرت وقتها بأني قد ملكت الدنيا بأسرها بين يدّي, وكدتُ أطير من السعادة والفرح , فهي حبي الأول والأخير الذي لامس شغاف قلبي, حبي الذي لا ولم ولن أنساه أبدا ما حييت .. وقد صدق أبو تمام حين قال :

نَقِّل فُؤادَكَ حَيثُ شِئتَ مِنَ الهَوى .. ما الحُبُّ إلّا لِلحَبيبِ الأَوَّلِ

كَم مَنزِلٍ في الأَرضِ يَألَفُهُ الفَتى .. وَحَنينُهُ أَبَدا لِأَوَّلِ مَنزِلِ

أذكر يومها كانتْ خائفة, وكانتْ قلقة ومتوترة, وكانتْ كثيرا ما تتلفتْ حولها خشية من أن يرانا أحد فيخبر أباها بذلك فيحدث ما لا يُحمد عقباه ....

وأذكر يومها سألتني بنبرة رقيقة فيها من الجمال والسحر ما فيها وقد وضعت عيناها في عينيَّ , و يداها في يدَّي, وقالتْ لي:

ـ وأخرتها ايه معاك ..؟!!

فقلت لها وأنا أبتسم لها , من شدة فرحي وسعادتي بها , :

ـ الجنة اللي تجمعنا سوى يا حبيبتي

ـ يعني ايه ....؟!

ـ يعني أنتِ الماضي , والحاضر , والمستقبل , وكل شيء في حياتي , وأنتِ أهم شيء عندي,

وكل شيء في حياتي ولن أستطيع أن أستغني عنكِ , ولا أقدر أن أعيش من دونك .....

انتبهتُ لصوت أحد الركاب فوق رأسي وهو ينادي على قريبٍ له ليضع أغراضه فوق رأسي ,

في العربة التي تكدَّست بالبشر والهرج والمرج والصخب ملء العربة التي قد تحولت إلى علبة سردين ,

الركاب وأمتعتهم والزحام يقلق أعصابي , والصخب يقتلني, ويشتت أفكاري, وأنا أكره الصخب جدا, وأحب الهدوء ..

رميت نظرة على الإعلانات الضخمة الفخمة التي عُلقت على طول السور الممتد , وألصقت في كل مكان, إعلانات عن كل شيء .....

نظرتُ إلى المقهى القابع تحت المحطة فلاحظت شيئا غريبا جُل الجالسين عليه بل أغلبهم من الشباب , وصديقي لم يزل يغط في سباته العميق, ثم ألقيت نظرة خاطفة على الوجوه التي أمامي لعلى أتعرف على بعض أصحابها ..

****

تحسست استمارة السفر الخضراء القابعة في جيب السترة الميري بجوار الراديو, والراقد بظهرها التصريح بالإجازة من الوحدة العسكرية, أخرجتُ الاستمارة من جيبي, وقرأتُ بصوت مسموع , وللمرة التاسعة : ..

" يصرح للمذكور بالغياب من الوحدة العسكرية من تاريخ .... إلي تاريخ ..... من الساعة ..... والى الساعة ..... " ...

" ثمانية أيام , بالتمام والكمال , ثمانية أيام مِلكي أنا وحدي, إحساس لذيذ بالفرحة يغمرني , ثمانية أيام سأنام فيها نوما عميقا , نوما متواصلا لا يقلقني فيه أحد, ولا يوقظني منه أحد , ولا يزعجني أي شيء , ولن أقوم من مرقدي إلا للأكل, والذهاب إلى الحمام, وفقط , ثم أعود أدراجي لأنام مرة أخرى من جديد , ثمانية أيام بلا طابور صباح , ولا قِطاع نظافة , ولا طابور تمام ,ولا خطوة معتادة , ولا طابور سلاح , ولا جري في المكان , ولا (اجمع) في طابور الهتاف , ولا شيء من هذا القبيل , ثمانية أيام سأكون فيها حرا, طليقا كالعصافير من غير قيودٍ , أو انضباط عسكري , أو أوامر عسكرية , أو نواهي , أو خدمات , أو تقرير ضابط نبطشي , أو دوّر مكتب .. أو .. أو .....

ياااه .. شعور لذيذ ورائع حقا , بل أكثر من رائع , أن تكون حرا , وأجمل منه أن تكون كالعصافير والفراشات تحلق بعيدا عن الواقع حيث تشاء وذلك طبعا كلما تذكرتُ بأنى حر, طليق ولو لفترة محدودة , ولو لوقت قصير جدا, فأنا أكره الرتابة , والروتين , والتكرار الذي يورث الملل , والاكتئاب ....

كلها ساعات قلائل وسأكون في بلدي الحبيبة " طهطا " حيث مسقط رأسي , مع أبى وأمي وإخوتي وأبناء إخوتي الأعزاء وسط أحبابي وأهلي " ...

دار ببالي للحظة كلام الشاويش .." فراج " ..

ــ يا عسكري يا بعكوك أنت , وهو, وهو .. ايديك في القايش ,وركبك لازم تخبط في صدرك, ثابت , كما كنت يا عسكري , كما كنت , ابدأ من جديد , ثابت ".....

رفعتُ الـ كاب الزيتي فوق رأسي , وابتسمتُ , وعيناي تمسح الرفوف المكدَّسة بالحقائب , والكراتين , وأقفاص الطيور المستسلم بعضها للنوم فوق بقايا الطعام ....

تذكرتُ صديقي النائم بجواري, نظرتُ إليه كان لا يزال نائما , تحسستُ ساقيَّ المتعبة فرطتها أمامي , وخلعتُ " البيادة " من قدمي بعد أن اطمأننتُ على حقيبتي وبأنها لم تزل في مكانها على الرف فوق رأسي,

ضغطتُ على أطراف أصابعي التي تؤلمني كثيرا من كثرة المشي والوقوف في الخدمات وطوابير اللياقة البدنية, أغمضتُ عيناي في محاولة يائسة للنوم كصديقي, ولكني لم أستطع, فالهدوء غائب عن المكان .. وأنا لا أنام في السفر أصلا , فضلا عن الصخب ,

ورحتُ أفكر في البلد , وأخذت أتوقع ماذا سيحدث عندما أعود وأصل إلى بيتنا الجميل, ورحت أتخيل المشهد , ...

" أبى وأمي قطعا عارفين بمجيئي الليلة لذا سأجدهما مستعدين وفي انتظاري, وسيسعدان ويفرحان كثيرا جدا لعودتي إليهم سالما غانما حامدين الله على رجوعي إليهم بالسلامة ,

أمي كعادتها محتفظة لي بنصيبي من الطعام , قطعة كبيرة من اللحم, وأبى قد جمع لي مبلغا من المال ليعطيني إياه عند السفر, وحتى أستطيع أن أصرف منه على نفسي عندما أعود إلى الكتيبة , أتخيل أبى وهو يضمني إليه بذراعيه السمراء الحانية إلى صدره العريض ليحتويني يحتضنني بقوة وحنو ويقبلني بين عينيَّ وهو لا يستطيع أن يمسك دموعه المتساقطة من عينيه الزابلة على وجنتيه السمراوين, وقد أبى الزمان إلا أن يترك بصماته الواضحة عليهما, ثم يلتفتُ إليَّ ضاحكا بملء فيه وهو يقول لي بصوت متحشرِج ونبراتٍ مرتعشة كارتعاشة أوراق الياسمين حين يداعبها النسيم, وهو يهزني من كتفيَّ برفق : ,

ـ والله كبرت يا ولد وبقيت راجل وعشت وشفتك دفعة قد الدنيا, تحمي وطنك وبلدك , وأهلك وناسك .. "

فتدخلني كلماته تغسلني تطهرني, وتنقيني من كل تعب ...

ثم يسترسل في الحديث معي , ليحكي لي عن شبابه الذي دائما ما يترحم عليه .. وكيف كان منضبطا في الجهادية ـ هكذا كان دائما يحبُ أن يطلق عليها ـ وكيف حارب الإنجليز حتى غاروا عن بلدنا ورحلوا عن آخرهم .. وعن العسكرية في أيام زمان , وكيف صارت الآن , وعن .. وعن ... وعن .....

وأنا أستمع له في حبٍ واهتمام بالغ النظير, وسعيد أيما سعادة بهذا وفخوراً بديمقراطيته , وأمي لجوارنا تُعِد لنا الطعام وهى تستمع معي , وتبتسم لحديثه , وتقاطعه من حين لأخر بسؤال ساذج , وربما بضحكة حلوة, ثم نجلس نتناول الطعام, وأنا أشعر بالسعادة وهما يفحصاني بنظراتهما الحانية في محبة وكأنهما يريانى لأول مرة , ويتحسسانِ من حين لأخر بيديهما وكأنهما يتباريان في استكشافي, أو كأنهما يتباريان في مسابقة عطوفة في من يكتشف أو يلاحظ عليّ شيئا جديدا قد تغير, وأنا سعيد بهذا الحب , ومغتبط بهذا الاهتمام الذي أراه وأجده منهما وأشعر وكأنهما أزالا عنى كل ألام الدنيا , وأوجاعها ....

وعندما يأتي دوري في الحديث حتما سأقص عليهما بفخر واعتزاز كل ما حدث معي, وما كان منى منذ فارقتهما في المرة الأخيرة وحتى عودتي إليهما وسأصف لهما ما رأيت وشاهدتُ ,

" كورنيش النيل, ومترو الأنفاق الذي يمشى تحت الأرض, والمصعد الكهربائي , والأهرامات وأبو الهول, والزحام الذي قد ملأ شوارع مصر, والناس كالنمل, وزحمة المواصلات, والجبل الأحمر, ومدرسة الشئون المعنوية, وميدان الرماية, والتدريبات الشاقة التي نمارسها كل يوم و" الميري" الذي مات وطق الذي ابتدعه لأنه لم يقدر عليه , والانضباط العسكري , ولم , ولن أنسى في خضم الحديث بأن أخبرهما عن النشيد العسكري الذي تُحارب إسرائيل من أجل أن تلغيه , أو تغيره , وبأنَّ .... وأنَّ .... وأنَّ .....

" العسكرية المصرية هي المدرسة العلية للوطنية وهي عرين الأبطال ومصنع الرجال على مر العصور والأزمان ".. جملة تجدها منثورة في كل مكان بالمعسكر ....

إحساس لذيذ يتسرب بداخلي يتوغل ويسرى بين حنايا جسدي كلما تذكرت تلك اللحظات الجميلة التي سوف تأتى عليّ بعد سويعات قلائل , وقد شدّ بيتُنا عن أخره , لاستقبالي الليلة وأعلن حالة الطوارئ ... فأطرب له , وأسعد ....

" بالأمس كانت عيناي " مفنجلة " ومصحصح على الآخر في خدمة " البرنقي " وأنا واقف خدمة من حديد, شادد, ومقفّز , السلاح متقاطع على صدري, والخوذة فوق رأسي, والشدة كاملة على ظهري , وعيناي في وسط رأسي, ومع كل ذلك , الشاويش " فرَّاج " كان يريد تعليقي في الخدمة لولا ستر ربنا , وعدتْ الخدمة بخير وسلامة ..

الشاويش" فراج " ماسك مكتب الأفراد, والخدمات ,

و" أرانيك الذنب" والتصاريح, واليومية التي يحملها كل يوم إلى مكتب العميد كل صباح ليوقع عليها, ويدوّر المكتب .. و .. و ...

ويا ويله , ويا سواد ليله, من يجده نائما في خدمته, أو تاركا مكانه في الخدمة , أو متكاسلا , أو من يجده جالسا حتى , أو حتى فاتح الراديو وهو واقف في الخدمة , أو يراه أثناء الخدمة يشعل سيجارة , أو راكن السلاح بجواره , أو السلاح غير متقاطع على صدره , أو غير ذلك, على طول يُثبت كل ذلك في تقرير ضابط نبطشي, ثم يدوّر مكتب في الصباح , ويوقع عليه الجزاء المناسب , ويُحرم من الإجازة حتى يقضى فترة ـ الانضباط العسكري ـ خمسة وأربعين يوم بالتمام والكمال "...

في الصباح بعد ما نزلنا من الميز, وأخذ كل واحد منا قطاع النظافة الخاص به, وقفنا في الطابور, وانتهى اليوم بسلام , استبقنا إلى العنابر, لتغيير ملابس اللياقة البدنية, وارتدينا

الأفارول المموه .. دقائق معدودة وكنا في أرض الطابور, ثم أخذنا نتشمَّم , ونتسقط الأخبار حول مكتب العميد عن اليومية كل بطريقته الخاصة فلا أحد يعرف متى سينزل اليوم حتى ينادي علينا لنستلم التصريح بالإجازة ....

وقتها عيناي كانت ترصد كل كبيرة وصغيرة في مكتب الأفراد, وكل حركة تدور من حولي من أو إلي مكتب العميد , شأني شأن كل زملائي, وأنظر من الداخل ومن الخارج لعل وعسى ,

وما أن أُوكلت اليومية لشاويش "محمد عبد الهادي " ليكتبها ويذهب بها إلى مكتب العميد ليمضيها من فوق هناك , حتى هرعت أسأله عمَّن سينزل أجازه, وعن الدفعة التي ستنزل اليوم , وإن كان اسمي فيهم أم لا..؟!...

فنظر إلي نظرةً طويلة , لم يستطع أن يخفي فيها ابتسامته الجميلة , فأخرجت له سيجارة وضعتها أمامه على المكتب , وعيناي لم تغادر الورقة التي أمامه, وقد بدأ عليَّ الارتباك والتوتر , فهذا دوري في الاجازة وهذا يومي الذي سأنزل فيه , وأخذت ألح عليه , ...

فضحك ضحكته المتميزة , وراح يعبث بالقلم الذي فوق المكتب , أخذ السيجارة أشعلها وهو يهز يده بالقلم مع رأسه بالإيجاب, فاكتفيت بالإشارة , وإن لم ينطق بها , فقد قالها برأسه, وفهمتُ بأن اسمي فيمن سينزل اليوم اجازة ,...

انطلقت كالسهم صوب عنبر المستجدين بعد أن ألقيت عليه التحية , سيجارة كيلوبترا, على الدفتر الذي أمامه , دخلت العنبر بسرعة وفى لمح البصر كنتُ أمام الدولاب الخاص بي , فتحته بيدٍ وباليد الأخرى رحت أفك أزرار السترة وفى ذات اللحظة كانت رجلاي تتخلص من الحذاء , ثلاثة دقائق فقط لا غير وكنت جاهزا على سنجة عشرة أمام مكتب الأفراد بزي الفسحة الزيتي المكوي, و" البيادة " النص ملمعة , ...

وقفتُ أمام مكتب الأفراد بجوار العنبر في الوسعاية التي تطل علي أرض الطابور, ومكتب العميد, والبوابة, وكل شيء في الكتيبة, وعيناي قد عُلِّقت على مكتب العميد, قرب البوابة الحديد المطل على أرض الطابور, والجنينة التي في الفناء , والعنابر , والميز,

وقفتً منتظرا التصريح وتذكرة السفر, وأنا أحاول أن أُهدئ من نفسي, أشعلتُ سيجارة, لأسكت اضطرابي المتزايد , وشعوري بالجوع والقلق, وتوتر الانتظار, ...

كنت منتظرا نزول اليومية من فوق من عند مكتب العميد, بفارغ الصبر ومخي سارح في البلد برهة , اقتربتُ من خدمة السلاح الواقفة من حديد والقابعة تحت " التَندة " الصفيح الصغيرة والشمس حامية فوق رءوسهم ..

سألتهما على الغداء .. فقال لي أحدهما في تهكم وسخرية وقد ضحكا بصوت مرتفع : ..

ـ أنت مش نازل أجازه يا ابني , ومروح النهارده بـ تسأل ليه بقى على الغدا...؟!..

فأجبته وأنا أتلفت حولي , لعل أحدا يأتي لي بخبر عن التصريح وقلت له :

ـ ولكن ربما أتأخر على النزول , وأنا جائع جدا .!!.

ودار بيننا الحوار عفويا , وأخذنا نضحك سويا , ثم سألاني عما سأفعله حينما أخرج من باب الوحدة العسكرية, ولما أروح البلد , ثم طلبا منى بأن أفتكرهما في الاجازة, وبأن أسلم لهما على الأهل والأحباب, وأن أفتكرهما بحاجه حلوة وأنا راجع أجيبها لهم عند العودة من الإجازة ووعدتهما بذلك ولو بشيءٍ يسير , ...

وداخلني شعور غريب مزيج مختلط من الفرح والسرور .....

بهجة النزول إلى البلد بلدي لا تعادلها بهجة , غدا سأكون في بلدي ومسقط رأسي ,

غدا سأرى أهلي وناسي وأحبائي والأصدقاء , وفي ذات اللحظة شعور بالحزن انتابني على فراق رفقاء السلاح الذين أكلت معهم عيش وملح, والمكان الذي ألفته , حتى صار في لحمي ودمى , كتيبتي التي أحببتها, والمعسكر, والمعدات, والمباني, وأرض الطابور, والخدمات ...

وكانت الدقائق تمر ببطء شديد جدا وأنا أنتظر التصريح .....

استأذنت من الخدمة , وانصرفت , لتسحبني قدماي إلى المغسلة , جلست هناك تحت شجر الكافور الكبير أستظل بظله والهواء البارد الجميل يداعب وجهي , ومخيلتي , والأوراق

على الأغصان تهتز , والشمس تمرر أشعتها ليقع ضوئها على هيئة دوائر صغيرة بيضاء على الأرض تتراقص أمامي والعصافير تزقزق , والقمري , وأنا جالس أشعل آخر سيجارة كانت في جيبي .. أخذت أنظر إلى أغصان الأشجار وهى ترقص وتهتز فوق رأسي مع الريح لتصدر صوتا جميلا , وحفيف الورق الأصفر يتطاير فوق الأرض بكثافة , والهدوء يلف المكان في جو مفعم بالشاعرية , وسحر المكان الجميل ...

" شجر الكافور هذا يملأ الصحراء بكثافة , وأنا منذ أتيت إلى هنا , وأنا أحلم بيومٍ أستيقظ فيه من النوم لأجد جميع أوراق الأشجار قد سقطت , أو جفت , فالأوراق التي تسقط منها تلوث قطاع النظافة الموكل أنا به كل صباح ومعي ثلاثة نفر من زملائي , واحد يكنس , والثاني يلم الأوراق , والثالث يرُشُّ الماء , والرابع يسحف الأرض , طقس يومي معتاد وممل , ورخم ولا يمكن أن ينفك أو يتغير إلا بالموت, أو خروجي من الجيش, أو الاجازة التي أنتظرها الآن.

نظرت إلى ساعة معصمي فوجدتها الثانية بعد الظهر ...

ها هو " محمد عبد الهادي" يتمشى يتبختر وهو نازل من مكتب العميد بعد ما مضى اليومية وهو يتطوح في مشيته , ويتمايل وهو يغنى أغنيته المفضلة ...

ـــ " علمني حبكِ سيدتي أشياء
ما كانت أبدا في الحسبان
فقرأت أقاصيص الأطفال..
دخلت قصور ملوك الجان
وحلمتُ بأن تتزوجني بنت السلطان..
تلك العيناها .. أصفى من ماء الخلجان
تلك الشفتاها.. أشهى من زهر الرمان
وحلمتُ بأني أخطفها مثل الفرسان..
وحلمت بأني أهديها
أطواق اللؤلؤ والمرجان..
علمني حبكِ يا سيدتي, ما الهذيان
علمني كيف يمر العمر..
ولا تأتي بنت السلطان "..

وما أن رأته العساكر حتى هرولت نحوه , وأحطنه من كل جانب , كالنحل التفوا حوله ,

وهم يسألونه بلهفة عن اليومية هل إتمضت أم لا..؟..

يصرخُ في وجهوهم , ويدفعهم عنه , مقهقها بصوتٍ عالٍ وجميل , ثم يجري, وهم خلفه يجرون , وهو يقول لهم:

ـ يا عسكري يا طُلبة منك ليه , لوه . لوه . ليه ..

يلحقون به , يشدّونه من كل جانب وهم يضحكون معه ويستحلفونه برحمة أبيه , وأمه ,

ـ هل اتـ مضتْ اليومية ولا لسه ..؟!!

فيجيبهم وقد وقف يلقف أنفاسه المتلاحقة , يضبط ثيابه , ويقفز , ويعدل من سترته , وهو يضحك, وقد شد نفسه وتمطّى, ومسح على شرائط كتفه بيده, واليد الأخرى تحتضن الدفاتر:

- أترجوني شويه كمان ,

- يا رب تعلق شريطين كمان

ينظر إلى كتفه بفخر واعتزاز وضحكته الجميلة المميزة لا تفارق وجهه السمح البشوش , وهو يقول لنا : ..

ـ طاب روحوا البسوا بسرعة وحذاري وإياكم أشوف حد منكم في الميز على الغداء , أرشقه على البرج فورا , أو أرميه على البوابة, أنتم عارفين , عايزين تاكلونا بذر وجدر ولا إيه ,

يا ولاد الآية أنا عارفكم , أنتم داخلين الجيش على طمع يا ولآد الذين .. هههههه ....

" محمد عبد الهادي" هذا إنسان طيب القلب, يحب المرح , متواضع جدا و الكل هنا يحبه , وهو يحب الجميع بلا استثناء , والكل يحب هزاره ومرحه , وأنا أحبه أيضا, إنسان رائع جدا صبور , شهم , نبيل , وكاتم أسرار الجميع في الكتيبة , لذلك هو محط ثقة لدى الجميع , والجميع يحبه ويعطيه أسراره , وأنا واحد من هؤلاء ...

فجأة يخرج الشاويش" فراج " على صوته يقف على باب مكتب الأفراد وينادي عليه وهو لم يصل إلى مكتب الإفراد :

ـ يا شاويش" محمد عبد الهادي" اجمع هنا بالخطوة السريعة , بالأمر ...

يلتفتُ إليه وهو يمشي نحوه وسط العساكر صوب أرض الطابور , فيزعق فيه مرة أخرى :

ـ بالأمر يا عسكري اجري بسرعة , تعالي هنا ..

فيأتيه مهرولا تاركا خلفه أرض الطابور, والمنصة , وعنبر المستجدين , والعساكر , حتى يصل إليه يعطيه التحية العسكرية وهو ينهك , يلكزه في صدره بيده, وينتر فيه قائلا له وهو يبتسم: ـ هـ رميك على البرج النهارده يا عسكري ,

ـ .....

يدخل " محمد عبد الهادي" المكتب, وخلفه الشاويش" فراج" مستندا على كتفه , أما نحن نتجمع بجوار المغسلة في انتظار التصاريح , وتذاكر القطار,

برهة من الوقت, بعدها خرج إلينا الشاويش" فراج " ومعه " محمد عبد الهادي" ليقول لنا :

ـ اذهبوا بسرعة , البسوا لبس الفسحة وغيروا عشان أعطيكم التصاريح, وما فيـ ش حد يجي لوحده كلكم يعطيني تمام أمام المكتب بعد عشر دقائق وأعطيكم تذاكر السفر عشان تطلعوا مع العربية , لأجل توصلوا بسرعة , والشرطة العسكرية ما تشوفـ ش حد منكم , وعشان كمان تلحقوا القطار وتروّحوا بدري, وتوصلوا بالسلامة في النُوارَة, واوعوا تتأخروا في العودة , واللي يتأخر ساعة واحدة عن الميعاد سأعتبرها له يوم غياب, يوم

فاهمين, وأنتم حرين بقى , وأنا مش مسؤول عن حد فيكم بعد ما تطلعوا من باب البوابة , ...

أسمع من يقول معي بكل قوة وثبات :

ـ تمام يا فندم .. عُلم وينفذ ..

وهو يقول لنا غاضبا وقد أخفي ابتسامة خفيفة حانية, نحبها منه أبت إلا أن تخرج من بين ثناياه , ابتسامة أب لأبنائه, فهو رغم شدته وقسوته علينا في التدريبات إلا أنه يحبنا كأبنائه , ونحن نحبه , يواصل حديثه لنا قائلاً :

ـ اتفضلوا , انصراف , وبالأمر ادخلوا العنبر وغيروا المموَّه بسرعة وتعالوا ,

ويدخل "محمد عبد الهادي" معه مكتب الأفراد لكى يكتب التذاكر وهو خلفه يرفع سترته على حقويه بيده واليد الأخرى على كتف الشاويش " محمد عبد الهادي " ....

انتظرتُ العساكر لما انصرفوا, دخلتُ مكتب الأفراد كي آخذ التصريح وأمشى , كي ألحَقْ بالقطار, وأروّح بدري, فأنا جاهز بزي الفسحة , فقد فعلتُ ذلك قبلهم , لكنه رفض, تحننت فيه كي يعطيني التصريح لكنه أصر على الرفض حتى تتجمع العساكر فما كان مني إلا الانتظار خارج المكتب حتى آخذ التصريح مع الدفعة , سلمتُ على خدمة السلاح , والبوابة , ومرقت كالطلقة نحو الخارج .. ولم أنتظر لأركب معهم العربة , " ....

القطار في المخزن , لم يتحرك بعد , لم يزل في مكانه , وما زال يستقبل الركاب التي تصعد تباعا لتشغل المقاعد الشاغرة لذويهم حتى ازدحم القطار عن آخره بالواقفين على أقدامهم في ردهة القطار, والمحشورين بين الكراسي والجالسين فوق الرفوف, وخلف الأبواب , وغيرهم الكثير هناك منتظرين على الرصيف ....

حمدتُ الله أني وجدتُ مكانا لأجلس فيه أنا وصديقي الذي يحبني وأحبه , والذي أصر أن يخرج معي ليلحق بالقطار لنسافر معا ورفض أن يتركني وحدي فهو من الصعيد الجواني , بلدياتي ...

" كلها بضع ساعات قلائل وأكون في بلدي الحبيب , بلد رفاعة رافع الطهطاوي, ..

شعرتُ برغبة ملحة في الكلام, والتحدث مع أحد , أي أحد, حتى أخرج من هذا الصمت القاتل, وأهرب من وحش التفكير الذي ينهش في عقلي , تذكرتُ صديقي الذي جاء معي .. بحثت عنه ألتفت نحوه .. كان لم يزل يغط غطيطا وهو نائم , هززت كتفه بعنف, لأتحدث معه, فتح عينيه مذعورا, فزعا, هدَّئت من روعه, أخبرته برغبتي في الحديث معه, حدّق فيّ برهة ببصره وكأنه يراني لأول مرة, ثم نفخ في وجهي بضجر وقرف وهو يمسح وجهه بيده متبرما ثم عدل من وضعه , سألني عن الساعة في يدي, وعن القطار, وهو يفرك عينيه , ويتثاءب:

ـ هل قام القطار من المخزن أم لا ..؟..

فأخبرته بأنه باقي عليه القليل .. قلت له ذلك وضحكتُ , فرمى عينيه في الفضاء البعيد وكأنه يفكر في شيء ما نسيه أو عنى له ثم هز كتفيه ومط شفتيه وأغمض عينيه وعاد إلى

ما كان عليه مرة أخرى, إلى النوم العميق, بعدما عدل من جلسته راح يستدعي النوم من جديد وهو يقول لي في خمول وكسل وتراخي مع تثاؤب: ....

ـ طاب سيبنى أنام حبة , وبعدين نبقى نـ ـ نـ تـ كلم ...!!.

– ..... !!!

ضحكتُ في نفسي , وأنا أضرب كفا بكف , وأنا في حالة تعجب منه , ثم استرخيتُ على الكرسي ..

صديقي نائم بجواري, وأنا جالس لجواره في قلق , وتململ , يصدر أصواتا غريبة وهو نائم أهزه بيدي ليستيقظ, أو على الأقل يعدل رأسه المائلة, فأفشل , فأهزه ثانية , ينتبه , ينظر إليَّ ويطيل النظر , أبتسم له , فلم يبتسم لي , ونظر إليَّ بتجهم ربما لأني أيقظته من نومه , وربما كان يظن بأنه لم يزل في الكتيبة , وأريد أن أيقظه حتى أسلم له الخدمة كالعادة , فدائما ما نوضع سويا في الخدمة , هززته ليفيق استيقظ من نومه , نهض عدَّل من ثيابه , وهيئته ومن جلسته على الكرسي, ثم عاد مرة أخرى إلى نومه يغط مرة أخرى في ثبات عميق , يغط غطيطا من جديد, وله شخير .....

فكرتُ في النوم , ورحتُ أغوص في تأملات عميقة , وفكرتُ في هذا الكون الفسيح , ورحتُ أتأمل كل شيء يدور من حولي, في هذا الوجود , الزحام, والناس , والدنيا التي تشبه القطار, الكل يجري ويسارع من أجل الركوب فيه , من أجل أن يصل إلى محطته , وتوقفت عند النوم كثيرا , ...

" النوم قرين الموت , مخلوق غريب حقا, وصديق ظريف إن طلبك أراحك وان طلبته أعنتك , النوم ذاك الحارس الخفي على بوابة الغيب البعيد, إنه لكائن عجيب حقا, النوم له سلطان , ومملكة خاصة , وأي مملكة , النوم عالم ساحر وجميل , ذاك الغريب الذي لطالما حيَّر العلماء والباحثين على مر العصور, وعبر التاريخ , إنه لغز الألغاز , وسر الأسرار, وشيء عجيب , لم يستطع كائن من كان وإلى الآن يعرف حقيقته , ولا كنهُ , ولا أن يفك شفرته , وطلسمه , كل ما أستطاعه الباحثون حياله أنّ يدوروا ويطوفوا حول هالته البنفسجية من غير أن يستطيعوا الولوج إلى عالمه الغريب العجيب , أو الدخول إلى مملكته الساحرة " ..

أخرجت استمارة السفر الخضراء الراقدة في جيبي , نظرت فيها , التصريح مطبوع على ظهرها .. أخذت أقرأ ما عليه للمرة العشرين ... .؟؟!!.... .....

" يصرَح بالغياب للمذكور.... عن الوحدة العسكرة .... من تاريخ .... إلي تاريخ ...." ....

أول شيء سأفعله عندما أصل إلى البيت كوب من الشاي المغلي أعدل بيه أم دماغي التي أشعر وكأنه انفلق في رأسي التي تدور هنا وهناك , ثم بعد ذلك أخلع الزى الميري الذي أرتديه, وبعدها حمام ساخن جميل أزيل به وعثاء السفر, ثم يأتي بعد ذلك الطعام, لقمة ساخنة جميلة, ثم أنام نوما عميقا لا أستيقظ منه ولو بالطبل البلدي ,

" سأنبه عليهم جميعا .. كل من في البيت قطعا سأخبرهم بذلك .. سأنام نومة هانئة دون أن يوقظني أحد.....

طبقت التذكرة الخضراء , أدخلتها في جيب السترة الميري مرة أخرى, تصطدم يدي بالراديو الترانزستور الصغير الذي اشتريته من زميل في مركز التدريب , لأقتل به وقت الفراغ , قربته من النافذة أدرت المؤشر, فصفع أذني صوت أجش , كان تعليق على نشرة الأخبار, ...

" لا بأس , فلتكن نشرة الأخبار إذا , فأنا أحب نشرات الأخبار , وقراءة الصحف, وأخبار الفن أيضا في الجرائد, ومتابع جيد لبرامج الفضائيات " التوك شو" , والفيس بك " هذا العالم الافتراضي الأزرق الجميل ,

يأتيني صوت المذيع العربي وصوته ممزوجاً بالحزن والأسى ....

"إسرائيل مازالت تواصل اعتداءاتها على قطاع غزى وتواصل استفزازاتها ببناء المستوطنات وعدم اكتراثها ورضوخها للقوانين الدولية " .....

إسرائيل لا تسمع لأحد, صمَّت أذنيها , وكأنها لا تسمع , ولا ترى, وأمريكا تكيل للعالم العربي بمكيالين بعدما نصَّبت نفسها شرطي على العالم الثالث ".....

شعرتُ بالضيق والاختناق يملأ صدري, فلم أستطع أن أواصل الاستماع أكثر من هذا, فأدرتُ المؤشر مرة أخرى, ليأتيني صوت العندليب الأسمر " عبد الحليم حافظ " وهو يشدو ويصدح بأغنية وطنية جميلة محببة إلى نفسي جدا, تشنف الأذان, فرحت أردد معه بصوت خافت : ..

" أحلف بسماها وبترابها .. أحلف بالمدنى وبالمدفع

ما تغيب الشمس العربية .. طول ما أنا عايش فوق الدنيا

أحلف بسماها وبترابها " .....

برهة قصيرة من الوقت تسلل فيها النعاس خِلسة إلى عيوني المتعبة , فأنا لم أذُق طعم النوم من ليلة أمس .. وقبل أن يحاول النوم سرقةُ عيني , وقبل أن أستسلم إليه تماماً جاءني صوت

جاءني صوت جهوري عالي جدا لرجل أدم ضخم الجثة يجلس في آخر العربة يزعق بكل صوته على ولده وهو يناديه , ويأمره, بأن يجلس مكانه حتى لا يتشاجر مع أحد, أو أن أحدا يأخذ مكانه ليجلس فيه , وابنه يرد عليه بصوتٍ عالٍ أيضاً مثل أبيه , وهو يضحك :

ـ تعبت من الجلوس يا بوي ..

ضحكتُ في نفسي مرة أخرى , وعَدلتُ عن قراري, وطردتُ النوم من عيني , ووقفتُ متزمتا عدلتُ من هندامي, وأنا أتأفف من الانتظار, فالقطار باقي على قيامه من المخزن نصف ساعة , رميتُ بصري من النافذة أتابع قرص الشمس البرتقالي وهو ينسحب في هدوء ليختبئ خلف الجبل, وسرح عقلي بعيدا...

وأتذكر أيام اللهو واللعب مع رفاق دربي, وحبي الكبير أيام الصبا, الذي ضاع مني , وأتذكر أيضا تلك الأيام الجميلة الخوالي التي مضت وولت وانقضت ولن تعود .. وأتذكر, أبي وأمي ,

تذكرتُ أول أيامي في الجيش , وأول يوم التحقت فيه بقواتنا المسلحة , كان يوما لا ينسى , يوما جميلا من أيام عمري , وكان يوما من أيام يناير, حوما أدراك ما شهر يناير في الجبل, وتحديدا كان في منتصف الشهر, لا أنكر أن هذا اليوم غير مجرى حياتي كلها , حوَّلها مائة وتسعين درجة , وقلَبَها رأسا على عقب .....

****

أسطوانته الخامسة

أغلقتُ الراديو , عدتُ إلى مكاني , وفكرت في النوم من جديد, ولكن هيهات هيهات , فأصوات الركاب العالية جدا , والباعة الجائلون ينادون من يشتري منهم , يتخلل ذلك توسل الشحاذين بعاهاتهم المستديمة , والتي ربما قد تكون عاهات مصطنعة على غرار ما نشاهده في الأفلام التي تُعالِج مثل هذه الظاهرة مثل فيلم " الموظفون في الأرض" للرائع فريد شوقي وشويكار الذي أُنتج عام ١٩٨٥, عندما كان مدير عام , وكان راتبه ١٣٠جنيه مصري فقط لا غير ,

أو فيلم الزعيم " عادل إمام " في فيلم " المتسول " وقد تفنن كل منهم لعرض بضاعته ,

هذا بيده إشاعات وروشتات لأدوية لا يستطيع شرائها , وأخر كفيف يتحسس طريقه , وثالث يمشي على يديه ,وهو يدعو لمن يعطيه شيئا, وامرأة عجوز تطلب المساعدة , ...

زحام شديد وباعة جائلون , وتصريح بالإجازة يرقد في جيبي , وصديقي بجواري, يغط غطيطا في ثبات عميق, وقد انعزل عن العالم , والركوب يتدافعون على الأبواب , والكل يجري ويسارع من أجل حجز كرسي له أو لذويه في القطار, وأنا جالس في صراع داخلي أتأمل هذا المشهد العبثي , وكل شيء يدور من حولي, في هذا الوجود , والدنيا التي تشبه القطار الكبير

قمت بمحاولة ثانية للنوم , وقبل أن أغمض عينيَّ في محاولة بائسة يائسة لاستدعاء النوم وحتى أكون مثل صديقي تسلل إلى إذني صوت ناعم كالحرير, هفهاف, ورقيق كنسيم البحر.. تنبهتُ بحثتُ عن صاحبة الصوت, كان الصوتُ لفتاة جميلة ينبعث من المقعد الخلفي .. تسألني بنبرة مضطربة متوترة قلقة بعض الشيء, وكأنها خائفة من شيء ما ...

قالت لي وهي مرتبكة: .

- لو سمحت القطار هـ يقوم أمتي ...؟

التفت إليها بسرعة البرق والضوء معا.. لأتعرف على صاحبة الصوت الحريري الملائكي .. رأيتها حورية فرتْ من الجنة لتجلس خلفي, غادة حسناء تبدو في مقتبل العمر, فتاة حسناء متوردة الخدين , كستنائية الشعر, عيناها عسلية , وجهها بدر في تمامه مدوَّر ليس دونه سحاب , الرقبة كُوْز من الإبريز الخالص .. أنفها منتصبة .. فمها قطعة سكر ياقوت مكسر فتاة يعجز القلم والبَنان واللسان عن وصفها , فجمالها يفوق الوصف والحد ..

فشكرتُ ربي أن أرسلها إليّ في هذا الوقت المناسب حتى أتحدث معها فهو أعلم بحالي, وأعلم بما في داخلي .. أسمعها مرة أخرى تقول :

- لو سمحت متى سيقوم القطار ....؟

بحركة سريعة وعفوية, قمت سريعا بغلق الراديو الصغير, وضعته في جيب "الزنط " الزيتي الكوري وأجبتها, وأنا لم أزل معلِّقا عينيَّ في وجهها الذي يشبه الحديقة الغنَّاء, ومن

دون أن أنظر إلى ساعة يدي لأجيبها عن سؤالها , وقلبي لا أستطيع أن أتحكم في ضرباته التي راحت تُسرع من الفرحة ..

- الساعة السادسة والنصف تقريبا.. ...

– .....

شكرتني بابتسامة رقيقة ساحرة أخرجتها من بين شفتيها الصغيرة الحمراء , ابتسامة أضاءت وجهها كالسراج المنير, ورمتني بنظرة فاترة ساحرة .. اخترقت سويداء قلبي كالسهم .. وأدارتْ عقلي كالخمر, وهي تُسكن بعض خصلات شعرها الثائر خلف أُذنيها..

ثم عادت لترتب شؤونها.. وأنا أنظر إليها في انبهار واندهاش, وأنا غير مصدق ما أرى..؟!! وما أسمع ..؟!! .. وسألتُ نفسي في نفسي

ــ ما هذا الجمال الباهر المبهر الآثر الذي يأخذ القلوب , ويخطف الأبصار .. ويذهب بالألباب..؟!!! ....

وبصعوبة بالغة استطعتُ تحويل عينيَّ عنها ,

أدرتُ وجهي للأمام, وأنا أتمنى أن تسألني مرة أخرى , وأخرى , وأخرى وراءها, حتى أتمتع بالنظر إلى وجهها الجميل , الضاحك , المضيء كالبلورة الصافية .....

" فلتسألني مثلا جعن القطار.. والوقت الذي سيقطعه القطار حتى يصل, والمسافة التي سيستغرقها القطار.. أو حتى تسألني عن صديقي هذا النائم بجواري.. عن أي شيء.. أي شيء..؟!. المهم تسألني والسلام , وأنا سأجيب .. المهم تسألني .. لأسمع صوتها العذب الذي يشبه قطعةً من موسيقى بيتهوفن الراقية.." أسطوانته الخامسة " أو مقطع من موسيقى" مونامور"...

كل هذه الأشياء وغيرها دارت في خلدي في لحظة واحدة وأنا أستدير بوجهي في محاولة يائسة لخلع عيناي من على وجهها الأبيض كاللبن الرائق ...

ورحت أسبح في بحور من الخيال , وأحلام اليقظة ,

أما هي فكانتْ من حين لأخر تنظر إليّ باستغراب وعلى وجهها ابتسامة فاترة تعلوها حُمرة الخجل والحياء وفي عيناها علامة تعجب عريضة وشيء من الاندهاش والإعجاب في ذات الوقت لمّا رأته من تأثير جمالها عليَّ .....

" وكأن بعينيها قوة مغناطيسية هائلة تشدّني من أخمص قدمي إلي مفرق رأسي , وتجذب كل ذرّاتي إليها فلا أستطيع انفكاكا من سطوة جمالها الفتّان , أو مقاومة سحر عينيها الأخّاذ "

أرقبها وهى تهرب بعينيها خارج النافذة لتحط كحمامتين جميلتين فوق الوجوه الناظرة الباصة إليها , والمقبلة صوب القطار, وكأنها تبحث عن شيء , أو تنتظر شخصا ما ..

وكان الوقت يمر ببطء وهي تنظر إليَّ من حين لأخر, ثم تنظر خارج القطار مرة أخرى..

وراح يداخلني شعور أكيد بأنها سوف تسألني مرة ثانية, لكنى تعهدت بيني وبين نفسي وذلك عندما تسألني مرة أخرى لم ولن أدع الفرصة تفلت من يدي , أو تمر مرور الكرام , ...

" لن أدعها تمر " الفرصة " دون أن أغتنمها, وأنتهزها .. سأجعل من السؤال حوارا , ومن الحوار موضوعاً , ومن الموضوع قصة , وحكاية تطول بنا بطول ساعات السفر, والليل الطويل وتمتد حتى نصل ..

لكنها الآن شاردة الذهن , صامتة , مطرقة , وهي تهز رجليها هزاتٍ متتالية في توتر وقلق , وهي تفرك يديها, بين الفينة والفينة, في حيرة وانتظار, وكأنها تترقب شيئا ما , أو تنتظر أحدا يأتي من بعيد, وهي تقرض أظافرها من حين لأخر في شرود ذهني , وكأنها تفكر في شيء ما عنّ لها"

عقلي المريض خيل إليَّ , بأنها تفكر فيّ , وافترضت أيضا بأنها تفكر فيَّ , وفي طريقة ما , لتبدأ الحوار معي , أو في سؤال أخر, تريد أن تسأله لي , ولما طال انتظاري .. تململتُ .. افتعلتُ السعال بصوتٍ عالٍ , لعل وعسى أخرجها من شرودها, أو الفت أنتباهها مرة اخرى إليَّ ,...

ودار في نفسي حوار عنيف جدا.. ؟ .

"ـ هل أبدأ أنا معها الكلام , أم انتظر ..؟!.. وأن بدأت أنا تُرى هل سترد عليَّ ..؟!.. ويا ترى عن أي شيءٍ سأتكلم ..؟!. وعن أي شيءٍ سأتحدث معها ..؟! ..

ـ أأسألها عن سر صمتها الرهيب ..؟!.. وتوترها الشديد.. ! , واضطرابها المتزايد ..! ..

أم أسألها عن سر جمالها الخطير الذي دوخني وأدهشني , ويكاد أن يذهب بعقلي .. ؟!! ..

أم عن ماذا يا تري ..؟!.. وما عساي أن أسألها ..؟!..

أأسألها عن سر الحزن الساكن في عينيها , والذي يملأ وجهها الملائكي الجميل الهادئ وعيناها ذات البريق الأخاذ والسحر الأسطوري ..؟! ..

أم ترى أأسألها عن عدم اهتمامها بي ..؟!!.. وعدم مواصلة الحديث معي ..؟! ..

أم عن وجهتها أسألها..؟!!..وإلى أي البلاد تنتمي ..؟! .."...

وعدت اسأل نفسي من جديد: ..

ـ " تُرى ما سر اهتمامي بها إلى هذا الحد ..؟!!..

هل لأني أريد أن أتحدث مع أحد , وفقط ..؟!!..أم لأني منذ فترة لم أر حبيبتي..؟!..

أم هل لأنها جميلة وتشبه حبيبتي ..؟!..

وما الشيء المختلف فيها حتى جعلتني أهتم بها كل هذا الاهتمام المبالغ فيه..؟!!..

والى هذا الحد الذي جعلني أفكر فيها هكذا.؟!!..

والـى هـذه الدرجـة التـي جعلتنـي مشـدودا نحوهـا بخيـوط غيـر مرئيـة , ومنجـذبا نحوهـا , ومنسحبا إليها كقطعة من الحديد الصغير نحو مغناطيس كبير .. ؟!! .." .....

ثم عدت إلى نفسي ألومها , وأعنفها.. وأوبخها على كل هذا الخبل والجنون الذي أنا فيه والذي يُدار في رأسي ..!!...

"هل جننت ..؟!!.. كيف سمحت لي نفسي بأن أفكر فيها بهذه الطريقة البلهاء , السخيفة ..؟!! ..

أمن أجل سؤال عادي جدا وعابر كان من الممكن أن تسأله لأي انسان أخر , لزيدٍ من الناس مثلا أو عمرا , أو لأي أحد غيري .. اهتم بها كل هذا الاهتمام المبالغ فيه, والغير مبرر بالمرة , والغير منطقي أصلا ....

يبدو أني أعطيتُ الموضوع أكبر من حجمه الطبيعي .. " ...

****

رصيف رقم ١١

أن تكون حرا طليقا كالعصافير والفراشات تحلق بعيدا عن الواقع ولو لوقت قصير جدا ,

أو لفترة محدودة أكيد هذا شعور لذيذ جداً , وإحساس رائع وجميل , ...

قطار رقم "٨٠ " مميز/ القاهرة / أسوان/ يخرج من المخزن ببطء شديد والناس تقفز فيه وهم يعتركون ويتدافعون على المقاعد والأماكن , والقطار ممتلئ عن آخره بالركاب ...

وأنا أجلس في مكاني في وضع استرخاء بهدوء يشبه الفتور واللامبالاة , غير عابئ بما يحدث , وتلك ربما تكون من أسوأ عاداتي أحيانا !

والقطار ممتلئ عن آخره بالركاب ...

" لمن لا يعرفني أنا من هواياتي المفضلة دائما حين أكون في سفرٍ أحبُ أن أتابع وأرصد كل شيء يمر بي , وما يحدث , وما يدور حولي , بتدقيقٍ وتأمل عميق في هدوء تام " , " .....

ثمانية أيامٍ بلياليها سأكون فيها حرا طليقاً , ثمانية أيامٍ سأكون فيها ملك نفسي, وفقط ...

نظرتُ لصديقي النائم على كرسيه بجواري وهو لم يزل يغط في نومه وقد انتفخ بكرشه وشخيره ....

أخرجتُ علبة السجائر التي اشتريتها من تحت المحطة وأنا في طريقي إلى القطار, أشعلتُ منها واحدةً وأنا أتابع الزحام والتدافع علي الأبواب , والقطار مُلِئ جوفه بالجلبة والصياح ..

يتمكن بعض الركاب من الجلوس علي الكراسي , والبعض الآخر ظل واقفاً متململ , قلقا , حائرا يبحث عن شيء ما .. وبعض الركاب أخرج رأسه من النافذة لينادي على ذويه بصوت مرتفع , وهم يلوحون له بأيدهم في شارةٍ منهم بأنهم هاهنا

ها هو مفتش القطار "الكمسري" يظهر في العربة مُقطّبا الجبين زاما بين حاجبيه وهو يدفع الناس بيده ليفسح الطريق له وفي ذات اللحظة يقطع لهم التذاكر, وهو لم يزل جازّا على أسنانه , يستحث الناس علي إخراج النقود بسرعة حتى يتمكن من قطع التذاكر لأكبر قدر ممكن من الركاب, ثم يجتازهم حتى يقطع لغيرهم , وفي نفس ذات الوقت يُجلِس الركاب الواقفين في الممر على الكراسي الفارغة والتي حجزها بعض الركاب لذويهم ... وكان الزحام على أشده .....

تقعُ عيني على طفلٍ صغير حدث ربما لا يتجاوز العاشرة من عمره, طفلٍ صغيرٍ أسمر, نحيل الجسم , أجعد الرأس , كان يقف أمام صنبور الماء , شعره كثيف ملبد , يرتدي قميصا أبيضا ممزقا بلا أزرار , ظهرتْ عليه البقع واضحة, القميص مفتوح على فلنه قديمة ممزقة متسخة تُبرز عظامه الصغيرة , وبنطال أحمر على ركبتيه رثٌ ومتسخ أيضا, وهو يملأ زجاجات البلاستيك الفارغة بالماء , ما أن ينتهي من واحدة حتى يضمها إلي صدره العاري الضامر كفرخ قمري, ليعبّئ أخرى ورائها , سحبتُ عينيَّ على قدماه لأتأكد أنها حافية.. كانت متسخة, , ومعتورة .....

فجأة يتنبه للقطار, يجري خلفه , يسرع , يُمسك بسلم القطار الحديدي, يضع إحدى قدميه على سلم القطار الخارج توا من المخزن , يصعد بحركة احترافية بهلوانية فائقة, وكأن بينه وبين القطار أُلفة , ومودة من نوع ما .. ؟!! .. ولسان حاله يقول للناظرين إليه ..

ـ لا تندهشوا لما ترون, ولا تراعوا, فأنا مدربٌ على هذا منذ زمن بعيد ,

يصعد القطار وهو يحمل فوق صدره زجاجات البلاستك المليئة بالماء ,

أراه يطوح واحدة بيده في الهواء وهو ينادى بمد صوته الضعيف على من يشتري منه :

ــ بخمسين "قرش" الزجاجة , اشرب يا عطشان , اروي نفسك طرِّي علي معدتك , بخمسين "قرش" وبس ....

صفير القطار يتعالى , وتتداخل الأصوات من جديد حتى تغطي علي صوت الطفل الصغير بائع الماء , وعربة القطار تشبه علبة السردين, أو علبة الكبريت , مزعج جدا هذا الأمر ...

وصديقي لم يزل نائما بجواري, وهو يغط غطيطا, وصوت بائع الجرائد, والكولا, والسندويتشات, والشاي, والحلوى, وغيرهم الكثير من البائعين الجائلين ذهابا وإيابا في ردهة القطار حولوا العربة الي مول كبير أو سوق شعبي متجول يباع فيه كل شيء .....

أخرجتُ رأسي من النافذة , برهة من الوقت , أستمتع بالجو, أخذتُ نفسا عميقاً لأتشبع من الهواء النقي الجميل , وأملئ عيناي بمنظر القاهرة وقت الغروب وهي تخلع ثوبها الكادح , لتلبس ثوبها القشيب المزركش الساحر, فالقاهرة بالليل كفتاة فاتنة جميلة, أجمل مدينة في الكون ...

" أنا أعشق ترابك يا بلدي, وبحب نيلك , وشمسك , وأهلك الطيبين, القاهرة بالليل شيء آخر يختلف, كورنيش النيل, الأهرامات, الشوارع, المترو, السيدة زينب, وسيدنا الحسين, وبولاق يعني الجيزة , والطلبية , ورمسيس , والمشابك , والمعادي , والهرم , وألف مسكن , وبين السرايات , والدائري , آه كانت أيام ...

صدق من سماها.." أم الدنيا مصر , وست كل عصر .." ...

الأبراج الشاهقة مزروعة في كل مكان , والعربات ذات الماركات المختلفة تلتهم الشوارع والميادين بأزيز محركاتها وسرعتها المجنونة , والخلق كثير ملء الشوارع , اللافتات في كل مكان وعلي جانبي الطريق, أراها معلَّقة بالطول وبالعرض ترعش وترقص مع الهواء بألوانها الزاهية المختلفة وهي تعلن عن أصحابها الذين لم أعرف عنهم شيئا , ولا حتى سبق لي أن التقيت بهم أصلا .....

تذكرت مدينتي " طهطا " الحبيبة الطيبة بلد "رفاعة "والشيخ "ابو القاسم" بلد الطيبين, الكادحين على لقمة العيش , بلد الخير والعمار, والجمال والسعي على الرزق" طهطا " بلدي

كانت هادئة قبل أن تغزوها المباني , والعمارات, والأبراج الخراسانية , وكانت جميلة قبل أن تدخلها المدنية الحديثة , وتعرف التحضر ووسائل الترفيه, بلدي كانت هادئة قبل أن يحدث فيها الانفجار السكاني الكبير, كانت بسيطة للغاية , كانت بيتين ونخلة وبينهم مجرى مائي , كما يقال , يا سلام على الجمال والروعة والبهاء والجلال والدلال قبل أن تغزوها

المباني من كل جانب , التي لم تترك أخضر ولا يابسا من الأراضي الزراعية إلا وابتلعته , أنا عشت فيها أجمل أيام عمري, وما زلت أعيش , ياآاه على الذكريات الجميلة ....

لكم أحنُّ إلى مسقط رأسي, اشتقت يا بلدي , واشتقت لأحبابي , لإخواني , ولرفقاء الطفولة والصبا , يا سلام على الجمال والروعة.....

ثمانية أيام بلياليها أنا فيها حر ملك نفسي وفقط ... ياآاه .....

كلما اقترب الوقت أشعر وكأني طائر يُحلِّق في الفضاء البعيد , وأسبح في السماء , والسعادة تتملكني لأني في اجازة, ...

" زمان كانت الناس بتعرف بعضها , أما اليوم الناس كالنمل ولا تعرف بعض, زحام في كل مكان , والخلق كثير, والناس كثيرة , تروح ناس, وتجيء ناس , ولا أحد يعرف أحدا , ولا أحد دارى بأحد , خلق كثير ياما , والشوارع مليئة بالناس, لكن الشعب المصري شعب أصيل طيب , وعاطفي , وعبقري بالفطرة , شعب جميل, وابن نكته , حضارة سبعة آلاف سنة .. رحم الله أمير الشعراء حين قال :

وطني لو شغلت بالخلد عنه .. نازعتني إليه في الخلد نفسي " .....

يصفر القطار لينبه الناس حتى لا يصابوا بأذى ويبتعدوا عن قضبانه الحديدية ويفسحوا له الطريق , والزحام على أشدّه في القطار, والقطار يقترب من الرصيف ....

" مصر ثاني دولة في العالم أدخلت القطارات وأنشأت السكك الحديدية " .....

لا أدري لماذا حضرتْ صورة أمي الحبيبة الحنينة الطيبة في رأسي الآن وهي على سطح بيتنا القديم وهي تطعم طيورها الصغيرة, وقد جلستْ في مكانها, تلتمس الدفء من شمس الشتاء, وقد نشرت شعرها الطويل الأسود الجميل لتمشطه فوق بشكيرها الأبيض الجميل الذي كانت تلف به رأسها, وهي تغني بصوتها الرخيم للطير المسافر وللحبايب الذين رحلوا عنها, وأنا أتطلع في وجهها الذي لم يستطع الزمن أن ينال من جماله إلا القليل ..

لكم أحنُّ إليكِ يا أمي , وإلى بيتنا القديم , ...

الشبابيك والشرفات, والمباني العالية تحجب أشعة الشمس المروحة , وأنا أشتم عبق التاريخ والماضي , وأتذكر شوارع مصر الساهرة .....

" بلدي لا تختلف كثيرا عن القاهرة بل هي قطعة مصغرة منها , أو قل صورة طبق الأصل من القاهرة حتى عاداتنا وتقاليدنا أصبحت مثل مصر على الرغم بأنَّا نسكن في الصعيد الجواني ,

إلا أننا اكتسبنا كثيرا من عاداتنا وتقاليدنا حتى في المباني والشوارع فلم يعد في بلدي "طهطا" إلا بعض الشوارع , والمباني , والأماكن القديمة التي لم تزل تحتفظ بعبقها وطابعها المعماري القديم , مثل بيت الأستاذ " كامل مرسي" الذي تحوَّل إلى مدرسة إعدادية, وبيت "رفاعة " القابع في مكانه , وشارعنا الضيق الطويل , والري القديم , وميدان المحطة الذي فيه تمثال "رفاعة " القابع في الميدان وكأنه يستقبل الناس تحت المحطة, وبيتنا القديم الأصيل القابع في " ساحل طهطا "...

تنبهتُ إلى صوت الفتاة التي تجلس **في المربع** الخلفي يأتيني صوتها دافئا ليخرجني من تداعياتي الجميلة , لأجد نفسي في القطار, **قوامها ممشوق, خمرية , ملونة العينين, نحرها كالإبريز الخالص , شعرها سبائك ذهبية,** تطلب مني في هذه المرة بأن أترك مكاني وأن أجلس لجوارها حتى تتمكن من حجز المقعد الشاغر الذي بجوارها لأمها وامرأة أخيها الحامل ....

ـ من فضلك ممكن تيجيني لتجلس معي هنا ...؟!

ـ .....

وبدون أدنى تردد وبسرعة البرق, تخطيت المقعد, أجبت طلبها , جلستُ , بعدما وضعتُ شيئا مكاني على الكرسي لأثبت أحقيتي له, وتركت صديقي يغط في نومه , وأنا أسألها بفضول:

ـ لماذا لم يأتين معك ..؟

أجابتني وعيناها تتصفح الوجوه المنتشرة بطول الرصيف , والأجسام التي تتدافع حتى تتمكن من القفز داخل القطار .. والقطار يترنح في مشيته ويتهادى في بطء وهو في طريقه إلى رصيف المحطة ,

ـ أمي مع امرأة أخي , حامل , منتظرين على الرصيف وأنا حجزتُ لهم هذه الكراسي ...

ـ طاب هما هيـ عرفوا يوصلوا لك ازاي في هذا الزحام ..؟!..

ـ مش عارفة .. ممكن تساعدني وتدور لي عليهم يا دفعة لو سمحت ..

ـ .....

القطار لم يزل يتهادى في مشيته وكأنه طفل صغير يتعلم المشي يسحب عجلاته ببطء وبهدوء شديد, وقد تمكن بعض الركاب من الجلوس على مقاعدهم , وآخرون لم يزالوا واقفين في ممر العربة , وردهة القطار, وبعض الناس أخرجوا رءوسهم من النوافذ ينادون على ذويهم بأصواتٍ مرتفعة متداخلة وهم يلوّحون بأيديهم في شارة لهم بأنهم هاهنا ..

أخرجتُ رأسي أنا أيضا من النافذة ولا أدري لماذا, ربما لأتعرف على أحدٍ أعرفه , أو ربما للإيحاء الجماعي, أو ربما للتشبع من الهواء النقي والاستمتاع بمنظر الغروب الجميل في سماء القاهرة, بعضا من الوقت ,

ثم جلستُ , أنظر إلى تلك الفتاة الجميلة وأنا أتأملها في صمت ,

تستدعيني الذكريات قصرا , ها هي أمي تجلس أمامي الآن , تضحك معي , تشاكسني , ... عصرتُ ذاكرتي التي كثيرا ما تخونني , فتذكرتُ تلك الفتاة الجميلة التي كانت تجلس في الكرسي الخلفي والآن هي تجلس أمامي , نظرتُ إليها فوجدتها شاردة الذهن , ...

" أنا أحب السفر بالقطار لأستمتع بالنظر إلى الحقول الخضراء التي تطل عليَّ من نافذة القطار المكسورة , وإلى البيوت الريفية الجميلة القابعة وسط الحقول, ومنظر المراعي التي ترعى وسط الحقول أراها أمامي عبر نافذة القطار, يا لها من متعة ما بعدها متعة , " .....

أتذكر " أمل دنقل " وقصيدته الرائعة " شجوية " حيث يقول في مطلعها

لمــاذا يُتــابِعُني أينمــا سِــرتُ صــوتُ الكَمــانْ ؟
أســــــافرُ فــــــي القَـــــاطراتِ العتيقـــــــة ,
((كــــــي أتحــــدَّث للغُربــــاء المُسِــــنِّينَ))
أرفــعُ صــوتي ليطغــى علــى ضــجَّةِ العَجــلاتِ
وأغفــو علــى نَبَضــاتِ القِطــارِ الحديديَّــةِ القلــبِ
((تهدُرُ مثل الطَّواحين))

لكنَّهـــــــــــا بغتــــــــــــــــةً..
تَتباعــــــــدُ شــــــــيئا فشــــــــيئا.
ويصحو نِداءُ الكَمان!

الطفل الصغير الذي رأيته يملأ زجاجات الماء, يقترب من امرأة مسنة ثمينة, كي تشتري منه, وهو يضحك لها, أشرتُ إليه بيدي ليدنو مني مسرعا , وهو ينادي علي من يشتري منه ,

ـ بخمسين قرش الزجاجة, اشرب يا عطشان, اروي نفسك ..

أشتري منه زجاجة ماء وأخرج له خمسة جنيهات من جيبي دفعتها له وأنا أفتح الزجاجة لأخذ شربة ماء لأبلّ بها ريقي الناشف من شدة العطش وهو يخرج لي نقوده الزهيدة القليلة من جيبه ليعُد لي الباقي , رفضتُ أن آخذها منه, وتركتها له, فرأيتُ الفرح والسعادة قد انتشرت على طرقات وجهه الأسمر الصغير ..

ـ بخمسين قرش الزجاجة, اشرب يا عطشان, اروي نفسك

يقولها بعدما يتجاوزني بخطوات قليلة ليلبي نداء الطفولة وعالمه الجميل الساحر

لا أدري لماذا يشدني منظره وهيئته الرثة وحاله البائس , وكلماته التي كانت تدخلني وتهزني بعنف شديد, ربما يكون تعاطفاً مني وشفقة عليه, وربما لأني لا أجد شيئا غيره لفت انتباهي,

" طفل صغير يبيع الماء في زجاجات فارغة يجمعها من القطارات والمحطات ومن بين قضبان السكة الحديد , بعض الركاب يتعاطف معه, ويشفقون عليه , ربما كان يسعى على أمه وأبيه , أو ربما يسعى على إخوة صغار له , وربما امتهنها ليعف نفسه من مد الأيدي , والتسول , هكذا افترضت وتخيلت في نفسي" ......

يناديه بين الفيْنة والفيْنة عالم الطفولة فيسرع في استجابة النداء قسرا , ويستدعيه بشده ألاحظه يلهو ويلعب مع نفسه تارة يخرج لسانه للهواء, وتارة يخرج لعبة صغيرة من جيبة ليلهو بها , وتارة أخرى يغني ويرقص, وربما عبث بالزجاجات التي فوق صدره الضامر, يلقي منها واحدة في الهواء ثم يلقفها بيده كساحر صغير, وهو ينادي بمد صوته الصغير في العربة المكدسة على من يشتري منه ...

يدنو مرة أخرى من أحد الركاب في المربع الخشبي في المقعد المجاور أتفرس وجهه جيدا, ألاحظ أثر جرح قديم غائر يمتد على طول جبهته , وأخر فوق صفحة خده الأيمن حتى

يصل إلى صدغه, يبيع للرجل وهو يداعبه, يضحك وهو يخاطبه بلغة تكبر سنه بكثير, أسمعه يقول له :

ـ الدنيا كم أقيه ..؟.

ـ هاتـ ها لي وأنا أوزنها لك ...؟!!! ..

ـ هههههههه

ـ .....

وظلتُ أتتبعه , وأنا أرثي لحاله كثيرا , يفرغ من إتمام الصفقة , وينصرف بعيدا وهو ينادي على من يشتري منه الماء , يبتعد عن العربة لكن صوته كان يأتيني بقوة ليصفعني ببراءته المجني عليها .....

وأخذ سؤال يلح في رأسي ويطرح نفسه بقوة ولم أستطع منه فكاكا وقلت لنفسي في نفسي :

ـ أي حظ عاثر جعله هكذا , وأي شيء دفع به إلى هذا المصير البائس ..؟!! ....

الفتاة التي أجلستني لجوارها لاحظت اهتمامي بهذا الصبي وانشغالي عنها بحاله , وأنا أتابعه بعيني عن كثب وهو يبيع زجاجة ماء لأحد الركاب من جديد , كنتُ ألحظ ذلك منها , وكأنها أرادت أن تأخذني من هذه الحالة التي تلبستني , وهذه الدائرة التي وضعت نفسي فيها , افتعلتْ صوتاً, تنحنحتْ , ثم نظرتْ إليَّ نظرة جميلة من عينيها , نظرتُ إليها فابتسمتْ , سألتني عن القطار : ,

ـ القطار بطيء جدا في مشيته

فأجبتها وأنا أنظر في ساعة معصمي لأتعرف على الوقت , أجبتها

ـ له ميعاد محدد يدخل المحطة فيه

ثم ألقيتُ نظرة سريعة خارج القطار, وعدتُ لأجلس مكاني , وهي بنفس الابتسامة الجميلة تُكمل حديثها معي لتقول :,

ـ ممكن تساعدني في البحث والعثور على أمي , وزوجة أخي

ـ أكيد , بإذن الله , لا تخافي , ولا تقلقي ,

قلت لها ذلك , وأنا أنظر في كل اتجاه , بعيدا عن عينيها وهي تشكرني وتكمل حديثها معي , وأنا مسترخ على المقعد أنظر إلى حقيبتي القابعة فوق رأسي على الرف وقد أخذتُ نفساً عميقا في محاولة لتهدئة روحي , ...

التفتُ إلى صديقي النائم بجواري وقد استيقظ فجأة من نومه كالمذعور.. كان نائما, وقد انتشرت على صفحات وجهه ابتسامة خبيثة أعرفها جيدا, وكأنه يلومني , ونظر إليَّ نظرة وكأنه يلومني بها , وكأنه يقول لي: " لما لم أيقظني حتى الأن " عدل لما لم أيقظه , قام من على كرسيه عدَّل من جلسته غمز لي بعينه, تثاءب, فرك عينيه بيديه , مدهما في الهواء, تمطَّي , ثم جلس وهو يغمز لي بعينه في اشارة نحو للفتاة

فابتسمت لصنيعه, وضعتُ يدي في جيبي , أخرجت علبة السجائر من جيبي , أشعلتُ سيجارة محلية الصنع ماركة" كليوباترا", سحبت نفسا عميقا حبسته في صدري وقتا, ثم أطلقته في الهواء, وأنا أنظر من نافذة القطار, وعدتُ للاسترخاء وأنا أنظر من النافذة المكسورة للفضاء البعيد وعواميد النور, واللافتات, والمباني, والعربات الفارهة, والناس وهي تغدو وتروح , وأنا أفكر في الإجازة والوقت الضائع منها, وأتابع المباني, والعربات , والناس وهي تغدو وتروح ..

أدس يدي في جيبي مرة أخرى أتحسس تذكرة السفر لأتأكد أن التصريح لم يزل راقدا في جيبي خلف استمارة السفر, أخرجته ورحت أتأمل منظره من جديد وأقرأه للمرة الـ عشرون .... " يصرح للمذكور ..... بالغياب من الوحدة العسكرية ..... من تاريخ ..... إلي تاريخ وضعتها في جيبي , وعدت أسترخي.. وأنا أنظر للفضاء البعيد .. وعواميد النور , واللافتات

****

سكة سفر

القطار يقترب من المحطة وهو يصفر, يُهدِّى من سرعته , يقترب من الرصيف المليء بالمسافرين بصفيره المزعج , معلنا عن حضوره, ...

وقبل أن يقف على الرصيف كنتُ قد أعددتُ خطة أدرتُها في رأسي مع سيناريو صغير سأقوم بتنفيذه حال يقف القطار علي الرصيف , وذلك بحثا عن أم الفتاة وامرأة أخيها الحامل ,...

وما أن دخل القطار المحطة, وقبل أن يقف على الرصيف, حتى تركت الكرسي وصديقي والفتاة, وانطلقت كالسهم من جوف القطار, واندفعت كالطلقة أعدو هنا وهناك وفي كل اتجاه أهرول , أمشِّط الوجوه فوق الرصيف , أبحث عن أم الفتاة وامرأة أخيها, فأنا أعلم بأن القطار سيقف , وقتا علي الرصيف , لا بأس به , حتى يتهيأ للرحلة الطويلة التي سيقوم بها والتي تبدأ من محطة مصر إلى أسوان والمقرر معادها في الساعة الثامنة والربع مساءً ليصل إلى أسوان في اليوم الثاني .....

أخيرا وجدتهما خلف العربة الأولى , محشورتان بين الكتل البشرية , تعرفتُ عليهما من خلال الوصف التي وصَفَّته لي الفتاة, والشبه الكبير الذي بين البنت وأمها, اقتربتُ منهما, اسألهما لأتأكد أني لم أخطئهما ....

ـ أنتِ أم ألهام , وأنتِ امرأة أخيها .....؟

أومأت أم الفتاة برأسها موافقة وقد تهللا وجههما فرحا وكأني رحمة جاءت وهبطتْ عليهما من السماء , طلبتا مني بأن أوصلها إلى الفتاة, فحملت أمتعتهما فوق كتفي , وطلبتُ منهما بأن يتبعاني , فردتُ الخطى , وشققتُ الزحام , وهما خلفي يتبعاني بصعوبة حتى وصلت أخيرا إلى المكان, وضعت أشياءهما بجوار حقيبتي فوق الرف, ثم جلستُ مكاني ....

دقائق معدودة امتلأ القطار فيها عن آخره, والفتاة وأمها شكرا صنيعي, وكان الليل يقترب

عدَّلتُ من جلستي , أخرجتُ سيجارة , أشعلتها, وأعطيت صديقي مثلها , ...

برهة من الوقت انشغلتُ عني بالحديث مع أمها ومرأة أخيها , وأنا رحت أتحدث مع صديقي في أمور عابرة .. ومضى وقت من الزمن , ...

وكنت من حين لأخر أختلس النظرات إلى الفتاة, وأنا أحمد الله أن منحتني هذه الفرصة كي أجلس معها في نفس المربع, وعيناها الجميلة تبتسم لي وهي تشكرني من جديد .....

وأنا أُبادلها نفس النظرة , والابتسامة , وكان في عينيها كلام كثير تريد أن تقوله لي لكنها لم تقله وهي تهز رأسها لتشكرني , ...

الناس لم تزل تتدافع والزحام على أشده , وأصوات الباعة الجائلين مازالت تنادي على من يشتري منهم , حتى الطفل الصغير عاد يأتيني صوته بقوة, وأنا أقنعت نفسي بعدم الاهتمام به أكثر من اللازم وبالفتاة التي تلاحظني من حين لأخر لأن الأمر لا يتعدى ساعات قليلة وكل سيذهب لحال سبيله حتما , سكة سفر ,....

لكن عيناها الواسعة لم تزل في عيناي, وقد ألصقتُ ظهري بالكرسي وأنا أنظر إليها , ...

القطار يتحرك أمتارا قليلة على الرصيف , يسحب عجلاته ببطء, ثم يقف مرة أخرى , فجأة حظي العاثر أوقعني في ورطة, وذلك بأن جعل عربة القطار تقف أمام عربة بائعة الشاي التي تقف علي الرصيف , هكذا فجأة وبدون إنذار , أو مقدمات , وتحديدا أمام النافذة المكسورة التي أجلس أنا بجوارها مباشرة , فظهرت بائعة الشاي واضحة أمامي , دقائق معدودة ,...

نظرتْ إليَّ الفتاة الجالسة أمامي فوجدتني أبتسم ابتسامة عريضة, وبائعة الشاي واقفة أمامي,

وقد زمتْ حاجبيها, وكشّرتْ , فحولتُ وجهي سريعا عنها, وكأني لا أعرفها البته , ...

سريعا اعتدلتُ في جلستي, أخرجتُ صحيفتي المفضلة التي اشتريتها قبل أن أركب القطار, أخذتُ أقلب صفحاتها بأعصاب باردة, وبحركة رتيبة فاترة , مسحتْ عيناي العناوين البارزة والمنشطات العريضة, فاكتشفت أن قصتي الأخيرة التي أرسلتها لإدارة الصحيفة أخيرا قد نُشرت , أعجبني الإخراج الفني للقصة , والخط الذي كُتبت به , ووجدتها فرصة سانحة لأندس فيها , متجاهلا كل ما يدور حولي, وقد بلغ التعب بي مداه , والإرهاق قد أخذ مني كل مأخذ, أشعلتُ سيجارة ورحت أقرأها بهدوء,...

تنحنحت الفتاة التي تجلس أمامي, وقد وضعتْ ساقا على ساق , اختلستُ نظرة إليها سريعة خاطفة , متظاهرا بأني لا أعرفها , فأربكتني بسمتها المفاجئة, وهربتُ من عينيها الجريئة, وتجاهلتها , ورحتُ أقلب صفحات المجلة التي في يدي من جديد, فابتسمتْ مرة أخرى وكأنها أدركتْ بذكائها بأن في الأمر شيئا ما جعلني أتحول عنها وأتجاهلها بعدما كنتُ ملهوفا عليها, وبأن هناك شيئا ما جعلني أحجم عن النظر إليها , والحديث معها,..

" بائعة الشاي هذه فتاة جميلة هي أيضاً, رشيقة, أنيقة, في العقد الثالث من عمرها , بيضاء البشرة , ملفوفة القوام , وجميلة , أعرفها منذ زمنٍ بعيد , وتعرفني " .....

ابتسمتُ لها ابتسامة عريضة لأبرهن لها بأني برئ من كل هذا , وبأن ما كان جلوسي أمام تلك الفتاة إلا بمحض الصدفة التي أوقعتني في شر أعمالي ,

تدافع الناس في جوف القطار مع صيحات الركاب وصوت المطربة "جواهر" ينبعث بالغناء من جهاز الكاسيت الضخم الذي يحمله أحد الركاب, وهي تغني أغنيتها الجديدة ...

ـ " أقدر أزعله, لا .. أقدر أغضبه , لا ..... "

يحول بيني وبينها , والفتاة الجالسة أمامي مازالتْ تبتسم لي ابتسامة رضا , وشكر لتبرهن لي عن مدى امتنانها وارتياحها لما حدث مني آنفا , فالتزمتُ الصمت , وعدم الاهتمام ,

فالفتاة التي تراقبني من بعيد على الرصيف تعرفني جيدا, وأنا أعرفها من زمن بعيد, وأخشى ما أخشاه أن تراني أكلمها , فلم أستطع أن أفعل شيئا غير الصمت , وتصفح جريدتي الفضلى, مع التجاهل التام , وأنا أنتفض من شدة البرد , والصقيع الذي غلف المكان , فنحن لم نزل في فصل الشتاء , ودرجات الحرارة منخفضة جدا , ...

صديقي ما زال يثرثر مع أم الفتاة التي لم تزل تحتفظ بجمالها , والفتاة التي ركبت معي القطار تشدَّ غطاء رأسها الأبيض وتُصلح من فستانها الموف, والابتسامة الساحرة الجميلة تملأ صفحة وجهها الأبيض الرائق كاللبن الحليب , إنها جميلة حقا ,

وأنا أختطف منها النظرات السريعة خلسة من حين لأخر كلما سنحت لي الفرصة بذلك وهي تجذبني إليها بقوة خرافية دون أن أدري, وأنا أشعر داخلي بقوتين عظيمتين, قوة جذب وطرد وحركتين متناقضتين , مد وجزر, وهي تغيب وتنظر إليَّ , وأنا متجاهلها تماما,

" الفتاة الجالسة أمامي ترتدي فستانا أبيض جميل , عيناها جميلتان عسليتان , رائعة ", ...

وعلى حين غفلة مني , ومن حيث لا أدري , وبقوة لا إرادية هائلة , غافلتني وأفرغتْ كل ما بداخلها من غموض وقلق وتوتر, وحزن وصبته بداخلي , ...

حديث صديقي مع أم الفتاة لم يصلني منه شيء إلا طنين خافت من كثرة الأصوات ,

والضجيج, وامرأة أخيها تجلس في الكرسي المجاور وسط مجموعة من الشباب تلعب معه لعبة الورق " الكشتينة " ....

هدير القطارات وضجيج الناس وصفير القطارات المزعج وأصوات الباعة الجائلين في القطار يجلد أعصابي , ويقلع رأسي ليلقي بها إلى الجحيم ..

وعندما لاحظتْ الفتاة عدم الاكتراث والاهتمام بها, أطرقت تنظر إلي الأرض برهة , ثم اتجهت بوجهها لتشارك أمها في الحديث مع صديقي ...

وأنا جالس في تخبط فكري, وخوف , وقلق واضطراب , وصراع نفسي ,

ـ كيف يمكن أن أفوت هذه الفرصة الذهبية من يدي ,

وظلتُ في تردد .. هل أشاركهم الحديث ..؟.. فيحدث ما لم يُحمد عقباه , فالفتاة التي تراقبني من بعيد على الرصيف تحذرني عيناها , وأنا أخشى ما أخشاه أن تراني أكلمها , لأنها تحبني جدا وتغار عليَّ هكذا قالت لي في أحد المرات :

ـ لو شفتك في يوم من الأيام بتكلم حد غيري يبقى يا ويلك يا سواد ليلك ..

ـ هـ تعملي إيه يعني ..؟!!

ـ هـ عمل إيه..!. هـ عملك بُقتيك طبعاً , وكفتة يا عينيا , هـ قتلك يا حبيبي ,

ـ .....

نظرت إلى صديقي الذي يبتسم وهو منهمك في الحديث مع الفتاة وأمها , صديقي لا يهمه شيء سوى تسلية طريقه, وقتل الوقت , وفقط ,

وذلك بالثرثرة مع أي أحد , أراه ينتهز الفرصة من حين لأخر, ليلتقط طرف الحديث بكلمة من هنا أوهناك, أو تحدث حركة فيعلق عليها بجملة أو جملتين , وربما افتعل هو الحوار بنفسه ليمطه ويكثر الكلام مع أم الفتاة ذات البشرة البيضاء, والشال الفلاحي المطرَّز باللؤلؤ

الأصفر والجسم اليافع , النضر, والبريق ألأخَّاذ اللامع الذي يشع من عينيها , والثياب السوداء , فالذي يراها من أول وهلة لا يشك بأنها أخت الفتاة وليست أمها , ...

أسمعها تقول له : ..

ـ أنتم إخوة .. ولا أصدقاء ...؟

ـ أصدقاء ولكن .....؟

ضحكتُ وضحكتْ من طريقة كلامه معها, وأسلوبه البهلواني الساخر في الرد, وطول النفس في الكلام والتعبير المنمق والتشدق في الحديث, وافتعال الحوارات , فهو يسلي ساعات السفر ليس إلا , ...

القطار مازال واقفا على رصيف "١١" فالقطار يوشك أن يتحرك , وهو ينتظر الإذن له بالمغادرة , والانطلاق في رحلته, وبائعة الشاي ما زالت واقفة أمامي , والناس في ردهة القطار يتدافعون وهم يتصايحون حتى يفسح بعضهم لبعض الطريق, والزحام كان على أشدّه,

وأنا أريد أن أتحدث مع الفتاة , ولكن لا أستطيع ذلك, وبائعة الشاي تنظر إليَّ بتهديدٍ وبتحدٍ, والناس مازالت تركب القطار تباعا والفتاة تغيب وتنظر إليَّ في استغراب واندهاش وتعجب, وهي ترمي خمارها على رأسها , وكتفيها العريضة , تغيب وتنظر, أذهب بعقلي بعيدا , ...

لا أدري لماذا حضرت الآن في رأسي صورة أمي الحبيبة , وهي جالسة علي سطح بيتنا القديم وهي تطعم طيورها الصغيرة وهي تلتمس الدفء من شمس الشتاء, وقد نشرت شعرها الأسود الجميل لتمشطه فوق بشكيرها الأبيض الذي كانت تلفه على رأسها وقد جلست بجوار الفرن البلدي , وهي تغني للطير المسافر, وللحبايب الذين رحلوا عنها, وأنا أتطلع إلى وجهها الذي لم يستطع الزمن أن ينال منه شيئا إلا القليل .... جميله هي أمي وطيبة .....

" كنت أحب أمي , وأحب أن أجلس لجوارها بالساعات الطوال أستمع لحكائيها الجميلة وهي تحكي ليّ قصتها مع أبي , فهي دائما تحب أن تحكي عن أبي , وتذكر لي دائما كيف أحبته , وكيف تزوجها ..... ودائما كانت تحب أن تحكي قصة زواجهما .. وكيف تزوجها ," ....

أذكر مرة سألتها, سؤالا بريئا.؟.. وكنت طفلا صغيرا وقتها ,

ـ لماذا يا أمي تزوجتِ أبي ...؟!! ..

ـ .....

أذكر ساعتها نظرت إليَّ , وأطالت النظر , ثم صنت تصمتْ ثوانٍ معدودة , ثم تضحك , ثم تتنهد تنهيدة عاشق , ثم تشرع في الحديث عن أبي , ثم أشرقَ وجهها بابتسامة خفيفة , وتهلل وجهها فرحا, وقد اتكأت ظهرها على حائط الفرن البلدي, وراحت تسبح في عالمها الخاص, الذي لم أره, ثم نظرت إليّ وضحكت , ورَنت إلى فضاء بعيد , وكأنها تستدعي الماضي القديم الذي لم أره , والابتسامة الخفيفة لم تفارق وجهها الجميل الذي لم يزل يحتفظ

بنضارته ونعومته إلى الآن , وأنا كلي فضول وترقب أن تكمل لي الحكاية, وتجيبني عن سؤالي الفضولي .. وتذكر لي قصتها مع أبي .....

فأخذت تحكي لي , وأنا أنظر إليها بحب , وتلهف لحديثها, عدّلت في جلستها, وأردفت تقول في نشوة , وهي تتحدث عن أبي :

ـ أبوك يا ولدي كان سبع, ألف امرأة كانت تتمناه, راجل ولا كل الرجال, صبي من يومه , عايق ومالي هدومه, طويل, وعريض, وعلي قدر وعارته علي قدر طيبته, وكل الناس بتحبه وتهابه , وتوقره, وده اللي عجبني فيه , وخلاني أحبه, راجل شهم , وكريم, واللي في ايده مش ليه , وأنا أتقدم لي يا ولدي كتير غيره, وأنا قولت مش عاوزه غيره, أنا كنت صبية يا ولدي, وحلوه, وأبوك أصرّ , صمم يتجوزني , ويأخذني من أمي بالعافية , وأمي كانت شديدة يا ولدي , واعره .. وما كانتـ ش راضية .. قالت لأبوك :

ـ بنتي مش هديها لك , هو الزواج بالعافية.!. ولما لقيته مصمم , ومُصرّ يتزوجني , اشتكته أمي في المركز والنيابة , وأبوك وقف قدام وكيل النيابة , ولا خاف منه , قال للباشا :

ـ أنا بحبها يا باشا, والله العظيم يا سعادة الباشا بحبها وعاوز أتزوجها على سنة الله ورسوله

فضحك الباشا, وكيل النيابة, وأنا وأمي واقفين مكسوفين قدامه .. فقامت أمي قالت للباشا :

ـ دي صغيرة يا باشا, وده كبير عليها, ومتزوج ومعه أولاد كمان ده ما ينفعـ ش واصل معانا

قام سألني وكيل النيابة مرة ثانية .. ؟..

ـ انتِ بـ تحبيه ..؟..

انكسفت أقوله, انكسفت أتكلم , بس ضحكت ساعتها, وأنا واقفة مكسوفة, وما قدرت أنطق, ولا إني أقوله بحبه , لكن الباشا فهم من نفسه, قام قال لي :

ـ يعني عاوزه تتجوزيه ..

فضحكتْ , وسكتْ , قام وكيل النيابة زعق في أمي وشخط فيها كده , وقالها:

ـ حرام عليكِ البنت عاوزه تتجوزه .. وهو يريد بنتك في الحلال , وافقي بقى !!..

قامت خافت من وكيل النيابة , لما كش فيها, فولّت وشها عليَّ , وقالت لي ..

ـ لو اتجوزتيه لا أنتِ بنتي ولا أنا أعرفك, تكوني محرَّمة عليَّ ليوم الدين ولا أدخل ليكِ بيت , ولا أخطي لك عتبة دار .. يا أم عين بدسه ..

وكله وأنا ساكتة , ومش قادرة أنطق , ولا قادرة أتكلم, ولا قادره أقول أيتها حاجة , أتكلم أقول إيه بس يا أخواتي ..

ـ وبعد كده حصل إيه ياما ..؟!..

ـ روحت البيت أنا وأمي بصيت, يا ولدي, لقيته دخل علينا وفى إيدُه المأذون, واتنين شهود, واتلمت الناس, وكتبنا الكتاب , وعلينا الجواب , وخدني معاه, ومشينا , وخلصت الليلة "....

****

بائعة الشاي

ما زلتُ أتذكر كل هذا الماضي الجميل البعيد بكل تفاصيله الصغيرة الرائعة .....

الماضي يعيش فينا ونعيش فيه ولا أعتقد أن هناك أحدا منا بلا ماض مرَّ بحياته..

من منا بلا ماض..؟!, من منا بلا ذكريات جميلة ..؟!, أو غير جميلة حتى ..؟!,

لكن تبقى ذكريات الماضي البعيد جميلة مهما كانت ..

الذكريات عالقة في أذهاننا دوما, ومحفورة فينا بحكاياتها وتفاصيلها الصغيرة التي لا تُنسى, قد تكون الذكريات مؤلمة أحيانا , أو قاسية بعض الشيء , وقد تكون مؤلمة حد البكاء , إلا أنها في النهاية جزء منا , تشكل أفكارنا ووجداننا, ولا نستطيع أبداً أن نهرب منها لأنها محفورة في الذاكرة , متجذرة بداخلنا , وممتدة في أرواحنا , ولا نستطيع منها فكاكا ....

القطار مازال واقفا علي الرصيف, وبائعة الشاي مازالت تقف أمامي تنظر إليَّ في تحدٍ صارخ وقد وضعتْ يدها في خصرها وهي تنظر شزرا, وعيناها ترمي بالشرر, والنار تتطاير من بؤبؤ عينها , أخذتُ أنظر إليها من حين لأخر باهتمام, وأنا أحاول أن أرسم على وجهي ابتسامة عريضة في محاولة فاشلة لإيهامها بأني لا أعرف تلك الفتاة الجالسة أمامي, وأعطي لها انطباعا بأن جلوسي أمامها لم أسعَ إليه إطلاقا وإنما جاء بمحض الصدفة البحتة , بينما كان بركان الغضب ينفجر بداخلي من الغيظ , ...

الفتاة الجميلة الجالسة أمامي لم تزل تغيب وتنظر هي أيضاً, وكأنها تستحثني على الاهتمام بها والحديث معها, وصديقي منشغل بالحديث مع أمها, وامرأة أخيها الحامل تجلس بصمت في المربع المجاور بين ثلاثة شبان, والطفل الذي لم يزل يحمل زجاجات الماء على صدره عاد, وصوته العالي ينادي على من يشتري منه, وأنا أنظر في الجريدة التي بين يدي التي اشتريتها من تحت محطة مصر, ولا أقرأ ..

ـ اروي نفسك يا عطشان بخمسين قرش واشرب ..

تذهب عينيَّ خلف الطفل الصغير الحافي القدمين أتَتَبعه أنّى ذهب, يقترب من الباب , يُخرج لسانه للهواء من جديد , يغني حينا, ويعبث بزجاجات المياه حينا أخر, يرقص, ويغني , يلهو, ويلعب من جديد , يقف بجوار صاحب الدمى الحجرية المزركشة التي يبيعها , يلهو مع واحدة منها, يلعب معها, فيصفعه صاحبها ذلك الرجل الضخم على صفحة عنقه بالقلم وهو يضحك يسبه بأبيه وأمه, فينظر إليه بعينين متسختين, حزينتين, نظرةً فيها ما فيها من الاستعطاف والاستجداء, وهو يطلب منه بأن يتركه لبعض الوقت يلعب مع الدمى, يدفعه بائع الدمى المنتفخ ببطنه وهو يحمل قليلا منها على صدره وينصرف في ردهة القطار لبيعها, وهو يحذره من الاقتراب من باقي الدمى , يسير وهو ينادي على من يشتري منه ..

نظر الطفل إلينا, بعينين صغيرتين متورمتين تحبس الدموع , ولسان حاله يقول

ـ " ما ترونه هو ثمن أدفعه دائما كلما أردتُ أن ألعب كالأطفال " .....

وكنتُ أبحث عن شيء ما يخرجني من تلك الحالة التي أنا فيها, الضجر الذي ملأني فلم أجد إلا قصتي المنشورة في الجريدة التي في يدي , أقرأها , وكأني لستُ كاتبها .....

" أمي كانت لديها قدرة فائقة على الخيال , والحكي , كانت موهوبة بالفطرة , كانت تحكي لي كل ليلة قصة جديدة , قد تكون واقعية أو من نسيج الخيال , وكان لديها مَلَكَة قوية في سرد القصص والحكايات, وأيضا كان لديها قدرة عجيبة على الاقناع, ربما أخذتُ أنا هذا منها , أمي كانت حقاً مدرسة برغم أنها لم تذهب إلى المدارس , لكنها كانت شيئا رائعا في حياتي "

الوقت يمر ببطء شديد كسمكة تزحف على الرمال نحو الماء وهى ظامئة وقد تعبتْ , أو كسلحفاة عمياء قعيد عجوز, البرد راح يشتد حتى كاد أن يجمِّد قدماي ,

والقطار ما زال واقفا على الرصيف, وأنا في حيرة من أمري, لا أدري ماذا أفعل ..

ألقيتُ نظرة سريعة علي بائعة الشاي الواقفة علها تكون قد انصرفت من أمامي ,

فقد كانت رغبة عارمة بداخلي وقوة جارفة من نوع ما تشدني تجاه هذه الفتاة الجالسةُ أمامي تلهف مع عطش شديد للحديث معها, والتعرف عليها, وسؤالها :

ـ من أين ..؟... وإلى أين ستذهب..؟.

لكن بائعة الشاي الواقفة أمامي تنظر إليَّ وكأنها تتحداني وتهددني , وتتوعدني, وتحذرني , أن أفتح فمي مع تلك الفتاة ولو بكلمة , إنها الغيرة إذن, لا بأس , فالطريق أمامي طويل .....

من هذه الفتاة , ومن تكون , بائعة الشاي .. لمن لا يعرفها هي .....

" فتاة جميلة لكنها شرسة جدا, أول مرة رأيتها فيها كانت تتشاجر مع ثلاث نفر من الشباب .. قالوا بأنهم " قاموا بالتحرش بها .. وقالوا بأنهم قلّوا أدبهم عليها حتى نفذ صبرها, وقالوا أيضا بأن هؤلاء الثلاثة نفر شربوا عندها الشاي ولم يحاسبوها على ثمنه.. وقالوا .. وقالوا ...

حينها حب الفضول دفعني للاقتراب من المشهد أكثر, ذهبت إلى مكان المشاجرة دفعتُ الناس بقوة حتى استطعتُ أن أجعل لنفسي فرجة صغيرة أطل من خلالها برأسي لأتعرف على ما يحدث هناك وأرى المشهد عن قرب.. كانت غاضبة, وصوتها مرتفع وهى تمسك بقميص أحدهم تهزه بعنف , والناس من حولها ينظرون, وهو ينتفض في يدها كالفأر الصغير المبلول أسمعها وهي تقول له :

ـ يا روح ماما أنت وهو, وهو.. دانا أشرحكم واحد , واحد .. سامعين يا حلوين .!.

يقترب منها باعة المحطة ليقفوا بجوارها يحيطونها من كل جانب, كل منهم متحفز ومستعد أن يؤاجر, ويجاملها, لكنها رفضت ذلك بشدة وزعقت فيهم بصوت بنت البلد الجدعة, وهى تدفع به بعيدا عنها وهو يرتعش في يدها:...

ـ لا ما حد ش ليه دعوة بيهم, وما حد ش يتدخل خالص, أنا قدهم والتلات تربع .. !!.

ثم أردفت تكمل بعد ما أرسلته من يدها :

ـ غوروا من قدامي الساعة دي, لأحسن ودينى أشرحكم وما أخلي الدبان الأزرق يعرف لكم طريق جرة ..؟!

– .....

ثم انصرف الجميع .. وظللتُ أنا واقفا مكاني , أنظر إليها وهي تبتسم لي ابتسامة صفراء, "

أخشى أن تراني أتحدث مع الفتاة الجالسة أمامي , وأتخيلها للحظة وهي تقترب مني ,

تسحبني من النافذة المكسورة كالفأر الصغير ولا تنتظر حتى أن أخرج إليها من القطار ,

أو ربما تأتي هي من الباب, ولن تعطيني الفرصة لأوضح لها حقيقة الأمر, أو أدافع عن نفسي, ولن تتركني أبين لها وجهة نظري, وأشرح وأبين لها الأمر والناس تنظُر وتشفق عليّ وستجعل مني أضحوكة للخلق, ...

" علقه ساخنة نار سألعق فيها البلاط ولا أشك بأنها لن تتركني حتى أعوم في دمى وأبوس الأيادي كي تتركني وشأني, وهى تنظر إلىّ باستعلاء وغطرسة وغرور, ويدها في خصرها تهزه كاللبلاب, تتمايل وتعتدل كعود اللبلاب طرى وأنفها في السماء والناس من حولنا يزدحمون, يتدافعون, ينظرون , وهم مشفقون علىّ , وأنا أرجوها أن تسامحني, وتتركني وشأني ولحال سبيلي , والناس يُمصمصون شفاههم .. ويضربون كفا بكف .. وكأني أسمع أحدهم يقول :–

– عيل وغلط يا معلمة ..! .. خلاص سامحيه والنبي ..!

– لالا لازم يتربى .. !

– كفاية كده , خد جزاته يا معلمة ..!

– مش هـ يعملها كده تاني خلاص بقى ..!

– .....؟ !

هكذا تخيلت المشهد .. مشهد سينمائي من الطراز الأول , موقف مالو دراما .. على تراجيديا سوداء مضحكة , كوميدية سوداء بامتياز, تُخرج لكوميديا " نجيب الريحاني وجورج أبيض " لسانها .. مشهد سينمائي لذيذ , ورائع .. ممكن يوظف في فيلم عربي هابط, مستهلك القصة , والفكرة , والمضمون .. هههه " ...

وربما في تلك المرة ستطلب منهم التدخل ليتعاملوا معي ولا تمنعهم من ذلك ليجاملوها, بل ربما ترحب بضربي وتباركهم , فكل الباعة يتمنون لها الرضى , لترضى .....

رجعتُ بجسدي للوراء وسرحت بذهني مرة أخرى, ورجعت لذلك اليوم الذي عرفتها فيه ...,

" بعد ما انفضت المشاجرة , وانصرف الجميع , ظللت أنا واقفا مكاني أنظر إليها في اندهاش وهي تنظر إليَّ وتبتسم, ثم جلستُ على المقعد الرخامي الذي بجوار المكان الذي تبيع فيه الشاي, ولأن القطار الذي سأركبه كان متأخرا كعادته , طلبت منها كوبا من الشاي, فأسرعت في إحضاره , ووضعته بجواري , وأنا أنظر إليها بإعجابٍ, وهي تبتسم, ثم طلبت منها وصلة سكر, فأعطتني السكرية ,

" السكرية كان منظرها غريب يدعو للدهشة والعجب, فأنا لم أرها من قبل, حاولتُ فتحها ولكنى فشلتُ, فرحتُ أقلبها في يداي وأنا أنظر إليها, وأتأملها, وهى ترقبني وتضحك من بعيد بصوت منخفض حتى انتبه المارة, فأخذوا ينظرون إلينا دون اكتراث أو تعليق ولو بشق كلمة ويمضون لحال سبيلهم , فلا أحد يجرؤ على التعليق ولو بربع كلمة " .....

برهة اقتربتْ منى , وأنا ما زلتُ أستكشف السكرية الصغيرة التي في يدي وأحاول فتحها, وهي تضحك, فوق رأسي تنظر إلي, وكأني كائن غريب جئت لها من كوكبٍ أخر, من المريخ مثلا , أو من أي كوكب بعيد عن كوكب الأرض, كائن غريب لاحظتُ في نظرتها الإعجاب ممزوج بشيء من الاستغراب وهى تسألني بصوت كهسيس المطر علي أوراق الياسمين والبلابل فوق أغصان الشجر الوارف الظلال , ...

ـ الدفعة منين ..؟!

ـ من الجنوب..!

ـ أحسن ناس

ـ عشتِ

أمسكتْ السكرية من يدي, ضغطتْ عليها بإصبعها بطريقة ما ففتحت , أعطتنيها, وهي مبتسمة فقلت لها :

ـ مرسي

فضحكت مرة أخرى ولكن في هذه المرة كانت الضحكات بصوتٍ عالي لفت انتباه المارة مرة أخرى على الرصيف , وبنبرة بنت البلد وقد أخذتْ مني السكرية قالت :..

ـ يا خويا كلمنا عربي أحسن

ـ شكرا , كتر خيركِ

ـ أه كده خليك ابن بلد .. ربنا يحفظك لشبابك

واستمر الحوار بيننا هكذا بسيطا , وعفويا, وبدون تكلف, ما يقرب من ساعة أو يزيد, ومن هنا كانت البداية, ومن هنا كانت الحكاية, وحصل التعارف , والاستلطاف .....

ثم جاء القطار وابتلعني في جوفه كما ابتلع خلقا آخرين, ثم توالت اللقاءات, والأحداث تراكمت بيننا, كلما أتيت إلى القاهرة أجئ إليها بلهفة واشتياق, ولا يمكن أن أمر على القاهرة من غير أن أتناول عندها كوبا من الشاي الساخن ثم نتبادل أطراف الحديث, والضحكات, والنظرات ذات المغزى وازداد إعجابي بها حتى أدمنت رؤيتها وتعودت عليها, وألِفْتُها وألفتني حتى صارت جزءا لا يتجزأ من عاداتي وطقوسي القاهرية التي لا تنفك عني ولا أنفك عنها بحال من الأحوال .. وكنت أرى شيئاً من الحب في عينيها وتصرفاتها معي فتعلقت بها ولكني لم أصرح لها بهذا .."".....

صوت استعلامات محطة القاهرة يعلن الأن عن انطلاق رحلة القطار في الميكرفونات .....

" القطار رقم "٨٠" مميز القاهرة / السد العالي / الواقف على رصيف"١١" والمقرر قيامه الساعة الثامنة والربع, محافظات سيقوم بعد قليل من على الرصيف " .....

يصفر القطار معلنا عن رحلته الطويلة, يزمجر, يصفر , وهو يسحب عجلاته ببطء , والناس يصعدون, وهم يتصايحون , ويتدافعون ..

أنظر إلى بائعة الشاي وأنا أودعها وهي تبتعد عني شيئا فشيئا وهي تشير بيدها لتودعني والابتسامة العريضة على شفتيها .. ويتجاوز بنا القطار الرصيف .. وينعكس ضوء المصابيح التي علي الرصيف في جوف القطار واللافتات التي فوق الشرفات وهنا تعود روحي إليَ فأتنفس الصعداء .....

يتجاوز القطار محطة السكة الحديد, يدخل علي المزلقان المكدس بالمشاة, يهدّئ من سرعته حتى لا يؤذي أحدا وأنوار العربات الواقفة في الانتظار داخل القطار تكشف وجوه الناس وقد هدئت أصواتها المزعجة قليلا .....

ينساب القطار ويظل يخبط بعجلاته حتى يدخل وسط الحقول الخضراء, وضعفت الرؤية وقلَّت وخيم الظلام الدامس على الكون, وانخفضتْ الأصوات المرتفعة شيئا فشيئا حتى تلاشت تماما, فلا تسمع إلا همسا أو همهمات ضعيفة هنا أو هناك وربما علت أحيانا لكن سرعان ما تنخفض

يأتيني صوت الفتاة من جديد همسا وقد ابتسمتْ في وجهي

ـ هه نحن هنا .. اللي واخد عقلك ... ؟!

ـ أبدا سرحت شوية كده

ـ قول شويتين تلاتة .. هههه

طبقت صحيفتي, حشرتها في المقعد الخلفي, أخرجتُ علبة سجائري قدمت واحدة لصديقي, أختطفها بحركة لافتة, أشعلها في فمه, أخذ نفسا عميقا احتسبه في صدره ثم نفخ في الهواء فخرج الدخان من فمه كثيفا على هيئة خطوط مستقيمة ودائرية ..

بدأتُ أشعر بالصقيع يسري في المكان ويتسرب ليسكن تحت مسام جلدي, نظرت حولي لأثبت لنفسي أنى لست الوحيد الذي يشعر بالبرد وينتفض من الصقيع فوجدت الكل منكمش في نفسه.. الركاب التي هي فوق المقاعد وفي ردهة القطار وخلف الأبواب المؤصدة وفوق الرفوف الكل منكمش مثلي من شدة البرد والصقيع, لتذكرني بالدجاج الذي تربيه أمي فوق سطح دارنا تحت خُص البوص والفراخ الصغيرة المنكمشة فوق الفرن المكسورة من شدة البرد تستمد الدفء من تلاحم أجسامها ....

أعمدة المصابيح المصطفة من بعيد على جانبيّ الطريق تظهر وتختفي فجأة والترعة الصغيرة بمحاذاة الجسر الحربي تسير مع القطار, والحقول الخضراء الشاسعة تكاد تلتصق بالأفق, والنخيل المنثور بين الحقول ينام في سكون, والسماء مرصعة بالنجوم, والبيوت الريفية البسيطة نائمة في سكون .....

أخرجت التصريح الراقد خلف استمارة السفر.. ورحت أتأمل منظره .. وأقرأه للمرة الـ .....

عنبر المستجدين

يوم وقفنا أمام عنبر المستجدين في صفوف ثلاث مصطفين ننتفض كالعصافير المبتلة من شدة البرد, والأسنان تصطك ببعضها ويُسمع لها صرير كان الشاويش" فراج" يلقي علينا التعليمات في حزم , وقوة .. وهو يقول لنا بصوت أجش:

ـ كل واحد منكم يتأكد من تمام مهماته ويضعها في مخلته يعني حقيبته , معاكم خمس دقائق من الآن لتفعلوا ذلك , !...

ـ هيا بسرعة .!... وتعالوا, اتبعوني في صف واحد .....

أتذكر يوم دلفت بنا عربات المشروع ودخلت بنا في قلب الصحراء وأقلتنا إلى المعسكر حينها انتابني شعور غريب وغامض لكنه كان شعورا لذيذا فأنا لأول مرة في حياتي أشعر بالغربة وأبعد عن بلدي وأهلي وناسي ومسقط رأسي لكن كل هذا يهون من أجل وطني الحبيب مصر والخدمة في جيش وطني...

وكانت تلك هي المرة الأولى التي أري فيها الكثبان الرملية منثورة وموزعة بطريقة هندسية الشكل علي مرمى البصر لترسم لوحة فنية رائعة لا تضاهيها يد فنان مهما كان , كان الجو شتاءً وكنا في أول يناير وفي عز طوبة وأنا أتصفح الوجوه الشابة التي كانت ركبت معي من مركز التجنيد وقد رُسمتْ عليها أشياء غريبة وغامضة تشبه غموض الصحراء, حينها كنت أنظر من نافذة العربة لأتابع قرص الشمس البرتقالي وهو يسير بمحازات العربة لتستتر بنا وهو يغيب شيئا فشيئا خلف السحب حينا , وحينا أخري يطل علينا في هدوء .. والكثبان الرملية منتشرة هنا وهناك بطريقة رائعة ومدهشة ومبدعة وكأن يد القدر بعثرتها في المكان لتشكل لوحة فنية رائعة وممتعة ولتكوّن منظرا جميلا ومدهشا ومبهجا للعيون ,وكانت العربة تسير قُبيل الغروب بين المدافن المشطورة على جانبي الطريق لتطفئ على المكان جوا مليئا بالهيبة والرهبة , ليطل منها علينا وجه الفَناء ولنشتم رائحة الموت ونرى بوابات عالم الغيب البعيد , والشمس كانت تغيب في بطء .....

وما إن وصلتْ عربات الأتوبيسات مركز التدريب حتى وقفت قليلا أمام البوابة الحديدية العتيقة وذلك للتفتيش ....

صعد نفر كثير من الجنود يرتدون الزى المموَّه والـ كاب الزيتي, وشارة أمن حمراء معلَّقة على أكتافهم أوقفونا صفين, صفين وبدءوا في التفتيش, وأنا واقف مستسلما لهم تماما , وقد تركت بصري يسبق قدماي في الدخول إلى المعسكر الذي سأقضي فيه فترة التدريبات العسكرية قبل الالتحاق بالوحدة العسكرية الأساسية, رحت أتجول ببصري, أستكشف المكان..

ثلاثة نفر على البوابة, واقفون من حديد بالشَّدة والخوذة والسلاح متقاطع على صدورهم, وعلى اليمين قليلا شاهدتُ سجنا صغيرصغيرا , عبارة عن غرفة واحدة عرفت ذلك فيما بعد بأنه سجن المعسكر بجواره "الجنينة " التي يتم استقبال الزيارات فيها, ورأيت المباني موزَّعة بطريقة عشوائية ومشتتة ومنشآت مجهولة الهوية بالنسبة لي, وكثير من الأشجار قد ملأت المكان أشجار السَّرْو والكافُور أغصانها تلهوا مع الريح وكأنها ترفض الانحناء إلا لخالقها سبحانه وتعالى, والهواء النقي يعبث بالأوراق .. وكان النهار يوشك أن يسلّم

الليل أخر موقع ضوء له ليحل المساء محله بعباءته الرمادية, وبرد الشتاء يصفع وجوهنا بلا رحمة يتسرب بداخلنا ليسكن تحت مسام الجلد حتى يكاد يجمد أطرافنا , ونحن نسارع الخطى إلى مكتب الأفراد بعدما صفونا في طابورين متوازيين , مررنا بمكتب العميد ثم أرض الطابور, ثم قاعة المحاضرات, ثم الميز, ثم عنبر المستجدين, يقدمنا الشاويش" فراج " وخلفنا عساكر الأمن يثرثرون مع ذويهم من بلادهم, أخيرا وقفنا أمام مكتب الأفراد ساعتان أو يزيد ,لا أذكر بالضبط كم مضى من الوقت ونحن واقفون لكن كل الذي أذكره أننا بالتأكيد وقفنا وقتا طويلا حينها, تزمجر بعضنا, وعلتْ أصواتنا, واحتججنا واعترضنا على وقوفنا في الطل والهواء البارد, والصقيع دون شفقة تأخذهم بنا أو رحمة ...

"ربما كانوا يعلموننا الصمود والقدرة على التحمل, فالحياة المدنية مرفهة بالقطع وتختلف عن الحياة العسكرية حتما " ..

خرج أحدهم أمرنا بالجلوس في أماكننا في وضع القرفصاء على الأرض في صمت وانتظام وانضباط عسكري حتى نتمكن من سماع أسمينا من الداخل ..

وظللنا هكذا حتى منتصف الليل, ثم انتقلنا إلى مخزن المهمات جلسنا أمامه شبه دائرة ليوزع علينا مهماتنا الميري في صمت ونظام أيضا ....

" في الجيش كل شيء بنظام , الصحيان بمواعيد وانتظام ,

الأكل , الخدمات , النظافة , الطوابير, الاجازات, الخ , الخ " .....

أنتبه على صوت القطار, والباعة الجائلون أصواتهم تملؤ العربة والقطار يقترب من إحدى المحافظات, وأنا أشعر بالتعب والإرهاق, وصديقي عاد إلى عالم النوم , والفتاة تنظر من النافذة ونور المصابيح المعلَّقة التي على الرصيف تحيل الليل إلى نهار, نظرتُ في ساعة يدي لأتعرف على الوقت ...

– يوم ضاع من الاجازة , لا يهم , المهم أني في اجازة ..

ما زال أمامي سبعة أيام كاملة , سبعة أيام بلياليها , سبعة أيام بالتمام والكمال, سبعة أيام سأفعل فيها الأفاعيل , وأسوّي فيهم الهوايلْ, سبعة أيام ملكي أنا وحدي .. أنام براحتي .. وأصحو على كيفي , أقرأ , أكتب , أتنزه , أزور الأهل , والأقرباء , والأصدقاء, أذهب إلى النادي, المقهى , وأذهب الى أي مكان أريده فأنا من الآن ملك نفسي وفقط , وإلى أن تنتهي الاجازة , حر طليق كطير في السماء أحلق في أي مكان ومعي تصريح بهذا " ....

صوت الواقف فوق رأسي ينبهني وهو يهزني من كتفي يطلب مني التذكرة , فمددت له التذكرة الخضراء .. التقطها بحنكة ودربة عالية متناهية النظير, قربها من نظارته المقعرة , وضعها تحت البطارية الصغيرة المعلقة في عنقه, ونظر فيها ثم فتح دفترا صغيرا في يده نقل منه شيئا ما كتبه, ربما يكون رقم التذكرة, أو ربما يكون التاريخ .. أو رقم الاستمارة, أو ربما شيئا أخر لا أدري ما هو ..

ثم دفعها إليّ بتأفف , وراح يعبث بياقة جاكته الأزرق , وهو ينتظر الشاب المكوَّم فوق أحد الرفوف , من شدة الزحام , ريثما يخرج له النقود من جيبه , وهو يدفعه بقوة بيده ليحثه على الإسراع في إخراج النقود وعدم التلكؤ, وهو يدس يده في جيبه, يعبث بالعملات

المعدنية.. يضبط المنديل الذي وضعه خلف عنقه ليمتص عرقه المتساقط .. يهزه مرة تلو المرة.. وهو يقول له مرة أخرى:

ـ انجز .. خلصني , ورانا مصالح عاوز أشوف غيرك ..

يقولها له في ذات اللحظة التي يهز فيها ساقه , يستيقظ الشاب , القابع فوق الرف , يجلس , يخرج نقوده , يمدها له وأحد الباعة يمر من أمامه, يبتسم له ابتسامة عريضة بلهاء, لا يأبه به الكمسري ولا يكترث له وهو يمرق من وسط الزحام قائلا له :

ـ أهلا حضرة الريس

يمر بائع أخر , يحمل سبت العيش على عاتقه وهو ينادي بصوته الجهوري :

ـ بيض .. وعيش .. وجبنة , يا لله ساندوتشات للـ هـ يأكل ..؟.. بيض .. وعيش .. وجبنة ..

يمد له الشاب ورقة بمائتي جنيه وهو يغالب النوم , يأخذها الكمسري بسرعة البرق وهو يبتسم له الشاب يفردها أمامه ينظر فيها , يفركها حتى يتأكد بأنها غير مزورة ثم يدعها في قلب الدفتر الصغير ..

يرتب الأوراق المالية بطريقة عجيبة.. يفر بعضها في يده ,الأوراق الصغيرة الصفراء والحمراء التي في الدفتر .. يقلبها.. يكتب خلفها شيئا ما .. وهو مقطب الجبين .. يضع القلم فوق أرنبة أُذنه.. يُغَيِّبُ يده في جيب جاكته الأزرق يُخرج منه قبضة من العملات المعدنية, يعد له ما تبقى من نقود.. وهو يسأله:..

ـ رايح فين ..؟

ـ .....

يصفر القطار , يتسحب في بطء ..

الكمسري يشق الزحام بسرعة, بعدما يكون قد أعطى التذكرة للشاب ليعود لنومه ..

يتجاوزنا , بدربة فائقة يشق الصفوف بطريقة غريبة حتى يصل إلى الركاب الواقفين خلف الباب والذين ركبوا توا حتى يقطع لهم التذاكر ...

يأتيني صوت الفتاة ليسألني من جديد ...؟

ـ أنت منين ..؟

ـ .....

هزت رأسها لتشكرني وعلى وجهها نفس الابتسامة الساحرة وفي عينيها كلام كثير غامض لم أفهمه ....

ألصقتُ ظهري بالكرسي , بعدما أقنعتُ نفسي بعدم الاهتمام بها, أو التفكير فيها مرة أخري, وأنا أتابع الكمسري وهو يدفع أحد الركاب بيده حتى يجلس آخر بجوره .....

أدس يدي في جيبي مرة أخرى أتحسس تسكره السفر القابعة في جيبي لأتأكد أنها لم تزل في جيبي .. أخرجها .. اقرأها للمرة الـ .....

" يصرح للمذكور .... بالغياب من الوحدة العسكرية .... بتاريخ .... إلي تاريخ .... " ...

صوت القطار مزعج جدا .. والزحام يكاد يسحب الهواء من المكان , والباعة الجائلون ينادون على ما يبيعونه, وصديقي الجالس بجواري مازالتْ نظراته زائغة هنا وهناك وبسمته البلهاء تملؤ وجهه .. وضعتُ التصريح في جيبي مرة أخرى, وأنا أنظر للفضاء البعيد, وعواميد النور , واللافتات , والفتاة ما زالتْ شاردة الذهن , صامته , مطرقة , وهي تهز رجليها هزات متتالية في توتر, تفرك يديها من حين لأخر في حيرة, وانتظار, وكأنها تريدني أن أبدأ أنا معها الحوار هذه المرة, وهي تقرض أظافرها من حين لأخر, وقد بدى عليها الفكر والانشغال وهي تنظر من نافذة القطار المكسورة , ترقبُ شيئاً ما , أو تنتظر , ...

****

آدم و حواء ..

أنا رجل غير منطقي , وغير نمطي , فوضوي, وغير منظم في حياتي , وموسوس جدا, رجل مريض بالخيال , والعاطفة , رجل غريب الأطوار,....

القطار لا يزال ينساب فوق الشريط الحديدي بكامل سرعته.. وهدير العجلات يشق ظلام الليل ويمزق عباءة الصمت الجميل وصوته يوقظ نخيل الحقول والليل وهو يجري ينادي المدن البعيدة والناس في القطار خف ضجيجهم, وخف صياحهم , فمنهم الصامت, ومنهم من نام , ومنهم من يتسامر مع من بجواره بصوت خافت , وباعة القطار في حركة دائبة لا تنفك , ولا تنقطع ذهابا وإيابا وكل ينادي على بضاعته, والبرد قد حول عربة القطار إلي ثلاجة كبيرة...

نظرتُ في ساعة معصمي .. كانت تشير لمنتصف الليل .. والبرد شديد ...

أم الفتاة تثرثر مع صديقي بصوت غير واضح منخفض لم يصلني منه شيء ..

أما الفتاة فكانت تنظر من النافذة الزجاجية, وفجأة بدأ عليها الشرود , وحالة من السرحان الشديد , فتمنيتُ لو أنها كانت تفكر فيّ , أو تشاركني في التفكير ..

تمنيتُ لو أدخل رأسها ..؟.. لو أستطيع , لأعرف ما يدور فيه..؟!..

أنا من صغر سني, وأنا أحب الجمال في كل شيء وأبحث عنه , فهو نقطة ضعفي الوحيدة , أحب الجمال في الطبيعة, والكلمة الطيبة , وفي الخضار, والماء الجاري , والوجه الحسن , وفي زرقة السماء, أنَّى وجد الجمال فهو يشدني إليه ويأسرني, بل يسحرني , ...

وأحبُ الشعر, والروايات, والقصص العاطفية, وأحب الحرية, والانطلاق, والسفر, وصوت العصافير, وأغصان الشجر وارفة الظلال, والورود, وأحبُ النساء, خصوصا إذا كانت المرأة ذكية , لمَّاحة , ومثقفة ,

أعتقد أن هذا إحساس ليس مرضي بالطبع, بتاتا البتة اطلاقا

وأبغض بشدة الروتين , والرتابة , والضجيج ,

وباختصار, وفي كلمة واحدة, أنا رجل أجمع بين كل المتناقضات بداخلي لدرجة تثير الشفقة عليَّ والاشمئزاز مني في آنٍ واحد ..

أنا أعترف بذلك ولا أخجل, نعم أعترف ولا أخجل, وأظن بل أكاد أجزم بأن كل واحد منا عنده نقطة ضعف بالتأكيد, نقطة ضعف ينفذ منها إليه الشيطان ويأتيه من خلالها, فمن الناس نقطة ضعفه المال, ومن الناس نقطة ضعفه المدح والثناء, ومنهم النساء .. و ...

كلنا بشر مخلوق من طين وماء ..؟!.. والإنسان ضعيف بطبعه ," .....

يضحك صديقي مع أم الفتاة وهي معه , والفتاة مازالت في شرود ذهني لذيذ, وأنا مشدود نحوها بقوة هائلة لا أستطيع الانفكاك عنها وأريد أن أتحدث معها , ومنتظرا ريثما تعود من شرودها الذهني حتى أستطيع أن أفتعل حديثا معها ...

عرفتُ من النساء الكثير ولا أبالغ لو قلتُ بعدد شعر رأسي, وأحببت منهنّ الكثير لكن للأسف الشديد كان حبي أعرج , أو أعور, أو أبتر, حبا من طرف واحد, حبا كان محكوما عليه بالفشل دائما ولا أدري لماذا..؟!..ربما لأن شكلي غير جميل.. ربما.!. أو ربما لأني غير وسيم .؟!. أو ربما لأني كنت خجولا زيادة عن اللازم .. ربما .. !!.. أو ربما لقلة مالي ..!!.. أو ربما لشيء آخر لا أدري ما هو..؟! كل شيء ممكن ووارد ... !!...

لا أكاد أذكر مرة واحدة علي مدار حياتي كلها بأن هناك فتاة ما, في وقتٍ ما, أو زمانٍ ما أحبتني, ولا أكاد أذكر فتاة من اللاتي عرفتهن قالت لي يوما " أنا أحبك ".. لا ..لا ....

أنا الذي كنتُ أقولها لها , وبصدق , كنتُ أحبهنَّ حبا من طرفٍ واحد .. أنا الذي كنت أحبهنَّ وأعشقهن وأهيم بهن لدرجة الجنون , وكنت أكتب لهن الخطابات الجميلة وأرصّعها بأبيات من الشعر وكلمات الغزل الجميل ثم أُرسل الرسائل ....

وكنتَ أكتبُ لأصدقائي خطابات مليئة بكلمات الحب والغرام ليرسلوها لفتياتهم أيضا,

أذكر, كنتُ أكتب أحيانا بل كثيرا خطاباتي الغرامية من نسختين أعطي واحدة للأصدقاء والنسخة الأخرى كنت أضعها في درج المكتب أحبسها مثل دموعي حتى لا يراها أحد ..

كان حبي لهنَّ عذريا ونقيا من الطراز الأول ومن الدرجة الأولى, أحببتهنّ حباً صادقا بجد .....".

البرد شديد, والنور في عربة القطار شاحب جدا , أو شبه معدوم .. والقطار مزدحم ,..

يأتيني صوت ارتطام عجلاته بالقضبان الحديدية يدرسني .. ويذكرني بفيلم " أنا وأنت وساعات السفر " إنتاج ١٩٨٥قصة وسيناريو وحوار العبقري الرائع الجميل الأستاذ / وحيد حامد/ والإخراج للرائع الأستاذ " محمد نبيه "والقصة تبدأ وتنتهي في القطار .....

تبدأ أحداث الفيلم ..

" حينما كان بطل الفيلم يجد نفسه أمام محطة قطارات " مصر " وقد أضجرته الحياة .. الزحمة والاختناق والإحباط دفعوه بأن يرمي نفسه في إحدى القطارات المتجهة توا إلى "الإسكندرية" يقف بجوار الباب بعد محاولات دؤوبة للحصول على مقعد فارغ ليجلس فيه.. وهنا تشاهد سلوى حبيبها القديم " عزت هلال " في القطار, ترسل إليه مفتش القطار ليطلب منه المجيء ليجلس بجوارها , فترتدي نظارتها السوداء حتى لا يتعرَّف عليها , فيجلس منهكا, أمام غادة حسناء يبدو عليها الثراء الفاحش في العقد الرابع من عمرها, ثم بدأ الحوار معها وهو لا يعرفها , يشكرها وهو يحاول أن يعطيها ثمن التذكرة , فترفض ذلك وهي تقلب في صفحات المجلة التي في يدها ..

ثم انساب الحوار بينهما بعدما اتفقا فيما بينهما على عدم الكذب والصراحة لمدة ساعتان ونصف, وهي مدة رحلة القطار .. ثم سرعان ما كشفت له عن هويتها , بعدما خلعت النظارة, فاسترجعا ذكرياتهما معا, ثم دار حوار طويل " فلاش باك" حاول أن يتعرف عليها في البداية ولكنه فشل ....

وكان مندهشا جدا لأنها تعرفه وهو لا يعرفها , في البداية ظن بأنها إحدى المعجبات..

فبطل الفلم مؤلف قصص وروايات, إلا أنه اكتشف في نهاية المطاف بأنها حبه الأول والأخير تلك الفتاة الجامعية التي لم تصبر على حبيبها ليكوّن نفسه , وتمردت على هذا الحب لتتزوج برجل ثري يحقق لها كل ما تريده وما تتمناه , وكان ينتظرها في نهاية الرحلة على المحطة في أخر الفيلم " .....

هيئ لي للحظة بأني "عزت هلال " بطل الفيلم , وبأني أعيش داخل الرواية , وبأن التي تجلس أمامي ما هي إلا حبيبتي التي تركتني وتزوجت غيري , ...

ولم لا وهي تشبهها في كل شيء , وربما كان زوجها في انتظارها هي الأخرى أيضا عندما تصل على رصيف القطار في نهاية الرحلة .. وابتسمتُ في نفسي لسخرية القدر .....

يصفر القطار من جديد يقترب من إحدى المحطات, يُبطئ من سرعته .. يتأرجح .. يتمايل .. يهدّئ من سرعته.. وأنا أنظر للفتاة وهي شاردة الذهن , وهي تنظر من النافذة نحو الظلام , ...

أذكر, وأنا في سن المراهقة كنت لا أستطيع ولا حتى أجرؤ أن أنظر في وجه امرأة ما ,

أي امرأة تحل لي مهما كانت , فضلا عن أن أكلمها , أو أنظر في عينيها بعمق, أو أقرأ تفاصيل وجهها حتى لدرجة جعلتْ الفتيات يسخرن مني ويهزأن بي , إلى هذا الحد وأكثر , وكان هذا يؤلمني كثيرا جدا , ويجعلني عرضة للسخرية من الفتيات في الشارع الذي أسكن فيه , ويجعلني فريسة للعزلة والاكتئاب النفسي ....

أذكر , ذات مرة أحببت فتاة جميلة جاءت من الريف لتكمل دراستها وتعليمها عندنا في البندر, وشاءت الأقدار بأن تسكن في البيت المتاخم لنا فكنتُ مهتما بها من بعيد لبعيد , وهي كانت مهتمةً بي أيضا وكان اهتماما مبالغا فيه , وغير عادي , ولا أدري لماذا ..؟!! .....

كانت في الذهاب والإياب تنظر إليّ وتبتسم وربما تضحك لي ,

فكنت أرتبك جدا, وأقع في حيص بيص, ويصير عَرَقي مَرَقي , وأغرق في شبر مية , وأنتفض كالعصفور المبلول من شدة الخوف والخجل , وإن صادف يوما وقابلتها في الطريق يا داهية دِبّي , بسرعة أُفسح لها الطريق , وأفرد نفسي , وأمد الخطى , وأجري , وقدماي تنتفض , وتخبط في بعضها , خشية أن تظن أني أمشي خلفها , أو أتبعها , أو خوفا من أن يراني أحد من الناس فيظن مثل ذلك , ...

وكنت دائما أسير في طريقي وعيناي لا أرفعهما من على الأرض بحكم تربيتي , ونشأتي المحافظة , هكذا كنتُ لا لشيء آخر سوى هذا غير أني كنت خجولا جدا , وكنت أشعر بأن الناس كل الناس تنظر إليَّ , بل الدنيا كلها كانت تراقبني , وتتابع حركاتي , وسكناتي , ...

وربما أسلك طريقا أخر غيره .. برغم أني كنت أحبها جدا .....

حتى تطور الأمر بيننا إلى درجة أنها حاولت أن تكلمني أكثر من مرة , وفي كل مرة, كنتُ أهرب منها وأجري من شدة الخوف الذى لا أعرف مصدره .....

واستمر الوضع بيننا هكذا فترة من الزمن , أبعد عن الطريق الذي ألقاها تمشي فيه وأتفاداها وإن كنتُ لا أتعمد أن ألقاها في هذا الطريق , ...

وكانت تكلمني كل فترة وأخرى , وكلما سنحت لها الفرصة , وبدأتُ أكلمها , وبدأ حاجز الخوف يتلاشى بيننا وبداخلي شيئا فشيئا الخوف الذي كان يملؤني من أي أنثى أو أمراه تقترب مني وهي تحل لي , وبدأت أتعود عليها, وأتعود الكلام معها , وأتعود على التحكم في أعصابي وانفعالاتي .. وبدأنا نتواعد ونلتقي أكثر من مرة ....

لكزني صديقي في صدري بقوة في هذه المرة ولم يدعني أسترسل في تداعياتي , أو أطيل في ذكرياتي أكثر من هذا ,.....

انتبهت , نظرت إليه في غضب , فابتسم في وجهي ابتسامة سمجة وباهته وهو يومئ لي برأسه , في إشارة منه تنبيه لأمر ما بأن أنظر إليه فأومأت له برأسي وقد بادلته نفس الابتسامة الباهتة .....

بحثتُ عن تلك الفتاة كانت لم تزل تجلس أمامي في سكون , أخذت أتأمل وجهها الملائكي وجمالها الرباني وعيناها الكحيلة في صمت مطبق , وأنا مجذوبا إليها بقوة هائلة هُلاميةَ خفيّة لا أستطيع منها فكاكا وأنا مكتوف الأيدي لا أفعل شيئاً غير النظر إليها والسرحان في جمالها الأخَّاذ غير أبه , ولا عابئ , ولا مكترث بكل ما يدور حولي .. وكأنها وعلى حين غفلة مني أخرجتْ كل ما بداخلها وسكبته بد اخلي عنوة ....

برهة من الزمن ليست بالقليلة أطبق الصمت فيها على المكان ...

وراحت تتداعى الذكريات في رأسي من جديد , تعبث برأسي , وتستدعيني مع هذه الفتاة الريفية ذات التسعة عشر ربيعان التي جاءت من أقصى الريف البعيد لتسكن بالبيت القريب المتاخم لنا ,

تلك الفتاة الجميلة ذات البشرة البيضاء الناعمة , والحيوية , والذكاء الفطري الذي كانت تمتلكه, والجرأة التي كانت تتمتع بها , كيف استطاعت بذكائها أن تخرجني من حالة الخجل والخوف الشديد الذي كانت يتملكني كلما نظرتْ إليَّ أو كلمتني, وكيف غَزَتني بجيوشها الناعمة الرقيقة, وكيف أيقظت المارد بداخلي , وأضاءت كل المصابيح المظلمة , وفتحتْ بابا لم أستطع إغلاقه حتى الآن .... وقتها كنت في المرحلة الثانوية .....

الكمسري يهزني من كتفي هزة خفيفة ليعيدني إلى عربة القطار, وصديقي ينظر إلى أم الفتاة وهو يبتسم ,

أخرج التذكرة من جيب السترة الميري أعطيها له ,

وكان القطار يقترب من إحدى المحطات وهو يخبط ويهتز فيهز من فيه ويرتج كل من بداخله

وأنا أنظر من النافذة, وصديقي ممسك بأطراف الحديث ويديره مع أم الفتاة بكفاءة واقتدار ...

تركته وعدتُ من جديد أسرح بعيدا بخيالي في تلك الفتاة التي أحببتها من كل قلبي , فهي الفتاة الوحيدة التي استطاعت أن تغزوني بجيوش من الرغبة وتشدني نحوها بلا مقاومة ..

وكنتُ لا أستطيع أن أصرح بحبي لها حتى تشجعت ذات مرة وأرسلتُ لها خطابا غراميات . قلت لها فيه كل ما يجول بداخلي وكل ما أشعر به نحوها وشرحت لها حالي ,

وفي النهاية طلبتُ منها ميعادا , ووافقت , وكانت المفاجأة , ...

يصفر القطار, يهدى من سرعته , يقترب من العمران , وأضواء المدينة **تغزو القطار** ,

أنظر من النافذة المكسورة ,

مازال بعض الناس يمشون في الشوارع , وبعض المحلات مازالت فاتحة , يقف القطار على الرصيف أمام أحد المقاعد الرخام ..

أنظر من النافذة المكسورة, أبحث عن اليافطة .. بعض الركاب ينزلون من القطار , ويركب آخرون , والمقعد الذي أمام النافذة يجلس عليه رجل مسن وطفل صغير قد نام بجواره وقد وضع عليه الرجل الكبير شاله ليدفئه , وهو يشعل سيجارته ليغالب النوم ...

تتغير الوجوه والأماكن والأنوار التي على الرصيف ,

وصديقي لم يزل يثرثر مع أم الفتاة وهي تنصت له وربما شاركته الكلام قليلاً ..

والفتاة التي تجلس أمامي مازالت على تلك الحالة التي هي عليها من الشرود الذهني والسرحان, وهي تنظر معي من النافذة ,....

وأنا على تلك الحالة , أفكر في كل شيء , أفكر في الإجازة , وصديقي , والفتاة , وأبي وأمي, وأفكر في الماضي والحاضر والمستقبل أفكر فيها, وفي الكلام الذي سأقوله لها لو حدثتها , ودار بيننا حوار,.....

أتذكر , يوم قبلتُ خطابي , وجاءت في ميعادها , كنتُ سعيدا جدا , تحدثنا كثيرا, ومشينا كثيرا, واليد في اليد قد تشابكت وحنت وروت لي الكثير عن أبيها الذي يريد أن يزوجها لابن عمها حتى يحافظ على تقاليد العائلة , والأرض لا يأخذها رجل غريب , وكيف كان لا يريد أن تكمل تعليمها, ولكن تحتُ بكائها وتحنن أمها وإصرارها وافق أبيها على مضض, وكيف وضع عليها شروطاً قاسية وعيوناً في كل مكان, تراقبها , ليعرف أخبارها أول بأول ...

وحكتْ لي وروت عن إخوتها الذين هم أشد غلظة وقسوة من أبيهم .. وكيف كانوا يضربونها ..... وكيف.... وكيف ..... "

وكنتُ أستمع لها وأنا أشعر بالفرح والحزن, والسعادة والأسى في آن واحدة ولا أدري ماذا أقول لها .. ولا ماذا أفعل حتى لا يأخذها أحد غيري , ولكي لا تتزوج من ابن عمها , وشعرتُ حينها بالعجز وقلة الحيلة , ...

وتوالت اللقاءات بيننا , وأخذ حبها يتزايد وينمو بداخلي ويكبر ويزيد في قلبي , يوماً بعد يوم حتى كانت النهاية , وحتى علم أبيها ـ لا سامحه الله ـ بكل شيء, فما كان منه إلا أن منعها من المجيء إلى المدرسة , أخذها من الشارع , وحبسها في البيت ثم أرسل إخوتها لأخذ حاجتها من السكن , وأصر على إتمام زواجها من ابن عمها هذا المعتوه الأبله من دون رغبة منها, ومن دون حتى أن تكمل تعليمها , ...

ورحلت , ولم أعد أراها بعد ذلك .. وانقطعت أخبارها عني .. وحزنت بعدها ومرضت مرضا شديدا بعدها , وساءت حالتي , وحاولتُ أن أعرف أخبارها , فلم أستطع لذلك سبيلا , ولم أتمكن من ذلك .....

****

حسن ونعيمة

الليلة شتوية بامتياز ولكنها رائعة ,

لم ولن أنساها ما حييت تلك الفتاة جميلة التي كانت تجلس أمامي وكأنها البدر نزل من السماء شاردة الذهن وسارحة العقل ,

القطار ينساب كالريح وهو يزمجر, يهتز, ويتمايل , وكأنه يرقص في عرس أسطوري رائع ,

وأنا تستدعيني الذكريات من بعيد , ولا أدري لماذا..؟!! ..

وأتذكر أيضا تلك الفتاة الجميلة التي كانت تسكن بجوار بيتنا بالذات , ومع أني أحببت بعدها الكثير من الفتيات الجميلات الفاتنات , ومع ذلك هي تلح عليَّ الآن ربما لأنها تشبه تلك الفتاة الجالسة أمامي .. وربما لشيء آخر لا أدريه .....

أذكر لها مرة من المرات موقف طريف وأنا كنتُ خجولا جدا ...

وكنت فوق سطح دارنا كالعادة أُذاكر, وكانت الدنيا غائمة .. وكان الوقت يقترب من المساء , وكانت السماء تنذر بالمطر, وكنت مستغرقا في المذاكرة , وكان الجدار الفاصل بيننا عبارة عن أعواد من القش والبوص .. حينها سمعت صوتها جاءني خائفا , خافتا , باهتا , ضعيفا , مرتبكا يحمل اسمي يعقبه "بسبسات" بصوت خائف أن يسمعه أحد غيري فالتفتُ إليها فوجدتها واقفة بفستانها الأحمر الزاهي الفضفاض الجميل وقد حلتْ شعرها الأسمر الطويل , وقد كشفتْ عن زراعيها البض , ورقبتها تشبه كوزا من اللُّجَيْنُ النَّاصِعُ , كانت تشير إليَّ بحماس وهي تبتسم , وقد أشارت نحوي بيدها أن أقبل , وكلها حيوية ونشاط , وكانت تلك هي المرة الأولي التي أراها هكذا بثياب البيت , حقيقة أنا لا أستطيع أن أصفها من شدة جمالها , كانت مختلفة تماما عن زي المدرسة الذي تعودتُ أن أراها به , حينها شعرتُ بقلبي يكاد يقفز من صدري, وقد ازدادت دقاته فجأة , ولا أدري لماذا..؟!.. ربما من الخجل , ربما .. وربما من الخوف .. أو ربما من الحب .. أو ربما لأني لم يحدث معي هذا من قبل , ..

فتاة تكلمني بهذه الطريقة .. !! .. وتناديني باسمي ..؟!! .. وهي تقف أمامي هكذا, وتشير إلي, وتبتسم لي في وجهي ..!! حينها بُهتُّ, وعرقتُ, وخربت, وقعت في " حيص, بيص " ..

عدلت من جلستي , وهي لم تزل تناديني باسمي وتـ بسبس وتضحك وتشير إليّ أن أقبل ,

وأنا وعرقي مرقي بل صار شلالات غزيرة , وأنا لم أقم من مقامي, ولم أتحرك , ولم أنطق ببنت شفة , فلو نطق أبو الهول لنطقت , ولو تحرك الجبل من مكانه لتحركت, واكتفيت بالنظر إليها وفقط ,

وقد أصابني ما أصابني من الذهول والبهت , والخرس , وهي واقفة أمامي تناديني بصوت خافت , وتشير إليَّ بيدها البضّة وأنا جالس مكاني , ساعة من الزمان , أو يزيد , ونحن على هذه الحالة .. تـ بسبس , تشير , وتضحك , وأنا لم أتحرك من مكاني , ولم أنطق ولو بكلمة واحدة , ...

وفجأة انقلب الجو علينا , وتغير .. وكأن الطبيعة غضبتْ علينا , وربما كانت تريد أن تنهي هذا الموقف الغريب ...

فجأة أمطرت السماء علينا , وكان المطر غزيرا جدا لدرجة أني خبأت كتابي حتى لا يبتل .. وجلستُ أستمتع بالمطر وهو يغسل البيوت , والشوارع , والعربات , والشجر , وكل شيء, فأنا أحب نزول المطر , ورائحة المطر, ورائحة مدينتي عندما يغسلها المطر ..

فما أجمل السماء حين تمطر .....

وشعرتُ بالسعادة وهي ترفرف في أجناب الكون الفسيح ,

وأنا أرفرف معها كالطير الذي عاد توا إلى عشه , وهي تلعب وتلهو مع المطر كما لو كانت طفلة صغيرة ..

رقصتْ , غنتْ على صوت موسيقي منبعثة من جهاز قريب وابتل شعرها الأسود الطويل فجمعته وعصرته بين يديها البيضاء كالعاج كما لو أنها تعصر قطعة من الحرير الجميل .. وهي ترقص وتغني مع المغني ....

ـ ((أهواك , وأتمنى لو أنساك , وأنسى روحي وياك ,...)) ....

وبدأت أشعر بإحساس غريب , ولأول مرة في حياتي أشعر وأحس بهذا الإحساس الجميل الرائع وهو يدخلني , وكنتُ صامتا ولم أتكلم , أ

لم أقل لكم بأني كنت خجولا جدا .....

رأيت القمر كالعُرجون القديم يسبح في الفضاء, والمصابيح تزين قبة السماء , وعواميد النور مصطفة على جانبي الطريق بمحاذاة الجسر الحربي, ويعض البيوت النائمة وسط الحقول الخضراء لم يزل ينبعث منها الضوء الشاحب , والنخيل نائم في سكون جميل, والهواء البارد يعبث بمعطفي , ويعبث بشعرها الطويل الناعم , وأوراق الشجر العتيق , والترعة الصغيرة تمشي مع القطار بمحاذاة الجسر الحربي " ....

على رصيف محطة " بني مزار" يقف القطار ريثما ينزل بعض الركاب ويصعد أخرون ...

شاب وفتاة يجلسان على أحد المقاعد, في حالة صمت وفتور ....

والفتاة التي تجلس قصادي, أخرجت تنهيدة عفوية فتبسمتُ لها فابتسمتْ وكأنها تريد أن تُشجعني على الحديث معها, وصديقي وأم الفتاة يتحدثان معا بصوت خافت ..

ـ أي بلدٍ هذه :

سألتُ أحد المترجلين على الرصيف

سريعا أجابني

ـ مركز بني مزار

ـ .....

شكرته وأنا أبتسم ..

بعض الركاب يتجولون على الرصيف, والباعة الجائلون في القطار تغير معظمهم ..

أخرجت علبة سجائري أشعلت واحدةً وأعطيتُ صديقي واحدة وأنا أنظر إلي تلك الفتاة الجميلة الغريبة الغامضة التي تجلس أمامي, والتي لم أعرف حتى الآن وجهتها فالفرصة لم تأتي ولم تحن بعد , وهي تنظر إليَّ ولم تستطع أن تُخفي بسمة جميلة كالفيروز

ـ بلد حسن ونعيمة ..

هكذا خرجت مني عفويا , فأجابتني , والابتسامة الجميلة على شفتيها كحُبيبات النور , وعينيها لم تفارق النافذة :

ـ أعرف تلك القصة جيدا .. أنا قرأتها وسمعتها أيضا ...!

ـ وأنا أعرفها لكن بها كثيرا من المغالطات , والمبالغات ..

ـ .....

القطار يتسحب ببطء , تاركا المحطة, ليغوص في الليل وينساب ويسبح بين الحقول الشاسعة

وهي تنصت إلي باهتمام بالغ وتركيز وكأنها تريد أن تعرف تفاصيل مني تفاصيل أكثر عن قصة حب " حسن ونعيمة " فوجدتني أسرد لها القصة كاملة وهي تصغي إليَّ باهتمام وتشوق

وبحركة من يدها تزيد من جمالها تضعها على خدها وأنا أتابع حديثي معها وقد ثبتت عينيها في عينيَّ , وأن أحكى لها بعفوية وأقص عليه قصة هذين الحبيبين العاشقين, وأسرد لها القصة كما جاءت رواياتها بدون توقف, أو انقطاع تلك القصة والتي قصصتها ـ ذات يوم ـ على صديقي ونحن نترجل في قلب الصحراء ونسير بين التلال , والكثبان الرملية الممتدة.. وفوق رؤوسنا الجبال, بعدما نزلنا من عربة الجيش , المشروع , تطل علينا بعبق الماضي السحيق , شامخة .. وكان القمر مكتملا فوقنا ..

القطار لا يزال ينساب فوق شريطه الحديدي بكامل سرعته, وهديره يشق ظلام الليل ويمزق عباءة الصمت , وصوته يوقظ الحقول , يجري ينادي المدن البعيدة , والناس في عربة القطار خف ضجيجهم , وخف صياحهم , فمنهم الصامت , ومنهم من نام , ومنهم من يتسامر بصوت خافت .. وباعة القطار في حركة دائبة , لا تنقطع ذهابا وإيابا , كل ينادي على بضاعته .. والبرد قد حول عربة القطار إلي ثلاجة .. نظرت في ساعة معصمي .. كانت تشير لمنتصف الليل ..

" أنا أحب السهر, والسفر بالقطار , كل رحلاتي دائما بالقطار, ونادرا ما ركبتُ عربة ,.. متسامح **جدا** وطيب جدا جدا , أحببت , نعم أحببت وما زلتُ أحب كل ما هو طيب وجميل , أحببت الصدق والوفاء بالوعد وأحب الخير لكل الناس .. ولا أحب الحفلات , ولا المناسبات , ولا الضجيج ولا الروتين , ولا الرتابة , ولا الهدايا , ولا الكذب , ولا النفاق, ولا البخل ولا التصنع , ولا الرياء , ولا الظلم , ولا الذل , ولا كل ما من شأنه أن يخل بالمروءة وينقص من قيمة الإنسان وقدره .. أما عن حب النساء فلا جواب نهائي لدي " ...

أخذت أدندن مع الصوت الذي يأتيني من الراديو .. كان صوت " أم كلثوم " وهي تشدوا بأحد روائعها

ـ الليل ودقت الساعة تصحي الليل ...

ابتسمت الفتاة من صوتي فأمسكت عن الغناء , لأقول لها وأنا أضحك :

ـ أنا عارف إن صوتي غير جميل لكن الست خلتني أردد معها

ـ أنت بـ تحب أم كثوم ..؟!

ـ الست , والعندليب الأسمر , وعبد الوهاب , يعني كل جيل العمالقة , تقدري تقولي عليَّ دقة قديمة ..

ـ أنا بحبهم زيك بس مش كلهم

وهنا أدركت في نفسي بأن الفتاة تريد أن تدير الحديث معي , سألتني عن اسمي , وبلدي

" أخيرا سأتحدث معها , سأسألها عن اسمها بالكامل, لابد أن يكون اسمها جميلا مثلها وعن سرحانها الطويل ..؟!! .. وعن سر هذا الحزن الساكن في عينيها الجميلة ..؟!!.. وعن أشياء أخرى كثيرة ..؟!! .." ..

ـ على فكرة , أنا بحب السهر جدا , والسفر بالقطار ..

قلت لها ذلك , وأنا اقترب من وجهها بحماس لأشتم رائحتها العطرة التي تشبه نفس الرائحة اتي كانت تحملها تلك الفتاة الريفية الجميلة , مصادفة غريبة حقا , نفس الشبه ونفس الرائحة ... يا إلهي .. !!.. ثم واصلت حديثي , قائلا لها :

ـ ما أجمل هذا الليل .. وهذه الليلة بالذات ؟! ..

ـ لماذا ..؟!!

قالت لي ذلك , وهي ما زالت تدنو برأسها , وتبتسم لي ,

ـ يمكن عشان أنتِ معايا , وتجلسين أمامي الآن .. ونتحدث سويا , ويمكن عشان فكرتيني بحاجات جميلة مرت بحياتي ,

ـ أنا أعرف الـ يحب الليل , والسهر.. هم العاشقين ؟!!.

- تعرفي مين أول من سهر الليل .....

– .....؟!!!!!

هزت رأسها بالنفي , ومازال وجهها ينير بابتسامتها الجميلة , وعيناها متسعة دهشة في انتظار الإجابة مني .. فأجبتها :

ـ إنها حواء

وفتحت فمها لتقول باندهاش غريب

ـ حواء ؟؟!!!!!

قالتها باندهاشة , وطابور من علامات التعجب اصطفت في عيناها الواسعة , وعلامة استفهام كبيرة ملأت وجهها الأبيض الجميل .. وفمها المعقود قد أفصح عن صفين من اللؤلؤ , وكأنها تستحثني أن أكمل حديثي معها ..

ـ نعم أمنا حواء ..

فوجدتني لا أملك إلا أن استطرد في حديثي معها .. وأبين لها أصل الحكاية

ـ دي حكاية طويلة .. يكفى أنكِ تعرفي .. لمَّا نزل أدم وحواء من الجنة لم ينزلا معا في مكان واحد .. وإنما نزل كل منهما في مكان مختلف .. فذهبا ليبحث كل منهما عن الأخر .. فكان أدم يبحثُ عنها في النهار, وينام بالليل .. أمَّ حواء فكانت تبحث عنه بالليل والنهار.. فلما رأته مقبلا من بعيد جلست مكانها.. فلما اقترب منها , قال لها :

ـ أنت تجلسين هاهنا .. وأنا أبحث عنك . ؟! ..

ـ ما تركت مكاني منذ نزلت ..

ـ يعني إيه حواء كذابة مثلا ..

ـ حاشا وكلا .. من قال هذا .. ؟

ـ أنت تقول هذا .. !

ـــ لا لا .. هذا اثر .. أو قولي خبر قرأته في كتاب " البداية والنهاية " لابن كثير ـــ وبصراحة أنا غير مصدقه , لكن أنتِ لماذا أخذتِ منه الجانب السيئ , ولم لا تأخذي منه الجانب الايجابي

ـــ اللي هو إيه ..؟

ـ اللي هو إن أمنا حواء , كانت تحب أبينا أدم أكثر " عليهما السلام "

ـ هههه .. وممكن تقول كانت خائفة عليه لا يضيع منها ..

ـ وممكن أيضا تقولي بأنها هي نفسها كانت خائفة, بحكم إنها أنثي وضعيفة وتبحث عن الأمن والأمان والحنان ..

وأخذتْ تحكي وأنا مقبل على حديثها وكأني أجلس أمام أستاذة جامعية في علم الاجتماع تخرجت من إحدى الجامعات العالمية , ورحت أستمع إلى صوتها الدافئ العذب المفعم بالأنوثة بنبرة صافية صادقة ,وأنا أنظر في عينيها .. فيدخلني الخوف , والعجب

- ما رأيك في الحب ..؟

- خرافة.. لكنها جميلة .. أأنتِ تؤمنين بهذه السخافات ..؟.!

ابتسمت في اندهاش .. ثم سكتت .. والسؤال لم يزل عالقا بعينيها .. وعلامة استفهام كبيرة .. وراءها طابور من علامات التعجب .. وأنا أكمل

- الحب أكذوبة كبرى اخترعها الإنسان في الأرض, ليخبئ ورائها أغراضه الحيوانية الدنيئة وأنا أسف عن هذا التعبير السخيف ...

- اومال إيه الموجود الآن ..؟!

- النفعية , والاحتياج , وتبادل المصالح .. الرجل محتاج لامرأة تقوم على خدمته , وتنجب له الأولاد وتؤنس وحدته .. والمرأة تحتاج لرجل يحميها , ويلبى طلباتها , وحاجياتها .. ويشعرها بأنوثتها .. و.....؟؟

- أنت اتجنن بجد .. جبت الكلام ده منين .. ؟

- من مدرسة الحياة .. الحياة علمتني كتير .. والدنيا مدرسة

- والحب من أول نظرة ..؟.. كلام فارغ برضك..

- اسمحي لي .. ما فيش حب من أول نظرة .. ولا من أخر نظرة

- أنت متشائم قوى.. ونظرتك للحياة سوداوية.. يا بني اقلع النظارة السوداء اللي على عينيك عشان تشوف الحياة حلوة .. وكلها ألوان زاهية وجميلة .....

وانقطع الكلام بيننا فجأة , وبردت جذوة الحديث, وعاد كل منا إلى ما كان عليه قبل هذا ..

هي تنظر من النافذة وتشرد , وأنا أنظر إليها حينا , وحينا أخر أشترك في الحوار الدائر بين أم الفتاة وصديقي .. وهو ينظر إليَّ ويضحك, وكأنه غير مصدق ما أقول .. أو ربما يريد لفت نظري بأن القسمة قد قسمت من البداية .. فضحكُ بملء فمي .. وأنا أقول له بنبرة ساخرة مازحة .....

ـ " ماشي يا عم الدنجوان " ...

ـ .....

استرخيت على المقعد, وأنا أشعر في نفسي بنشوة وسعادة غامرة , نظرتُ في عينيها بتركيز لأتأكد من أنها عسلية, مكتفيا بالنظر , وبالصمت ,

والذكريات تتزاحم في رأسي,

أتذكر ," يومها تجاذبنا أطراف الحديث وتسامرنا وتكلمنا في كل شيء , وفلسفنا كل شيء .. تكلمنا عن الحياة , وعن الحب , والأدب , والشعر, حتى المشي على الرمال .....

حينها طلبت منى أن أحكي لها عن مغامراتي النسائية قبلها , فرفضت , ولكن تحت الإصرار الشديد منها وافقت على طلبها وقصصت عليها بعضاً من حكاياتي العاطفية التي اختلقتها لها وذلك من باب الدعابة والمرح ليس إلا , ومن باب المسامرة والتسلية وقتل الوقت وفقط " .....

أتذكر, " عندما مرضتُ .. طلب مني قائد الكتيبة , لما رآني غير قادر على طابور اللياقة البدنية .. ذهب بي إلى مكتب الأفراد, وطلب من الشاويش" فراج " أن يعطيني " أورنيك " عيادة , مرضي .. وبالفعل خرجتُ مع عربة التعيينات, وذهبتُ إلى المشفى العسكري .. وكانت تلك هي المرة الأولى التي دخلت فيها مشفى عسكري في حياتي, ولا أستطيع مهما أوتيت من فصاحة لسان , وبراعة وصف , أو بيان أعبر عن مدى جمال المكان الذي يطل على النيل وقمة الرعاية الصحية التي تلقيتها , والاهتمام .. وراحة النفس التي وجدتها هناك كان كل شيء فيها على أعلى مستوى , من النظافة , والعلاج , والراحة التامة .. تشعرك وكأنك في فندق خمسة نجوم .. الجميع هناك يهتمون بك .. يراعوك ويخافون على حياتك وكأنك واحد من أهلهم غالي , وعزيز لديهم ".. تمنيتُ لو قضيت جيشي كله هناك .. وتمنيتُ أيضاً بأن أجد كل هذا الجمال والاهتمام , في جميع المستشفيات التي بالخارج .. قضيت بضعة أيام .. كانت من أجمل أيام عمري .. الجو كان رمضان .. والمكان هادئ, ونظيف , اهتمام ورعاية تفوق الحد والوصف والخيال , كل شيء بمواعيد وانتظام , كل من يراك يسأل عنك , ويدعو لك ,ويتمنى لك الشفاء العاجل , ويتمنى بأن يقدم لك أي خدمة , تطلبها ..

شعرتُ بينهم وكأني بين أهلي وناسي .. لم أشعر بالغربة, أو الضيق , أو الملل , ولو للحظة واحدة مع أني سريع الملل والضيق ولا أحب أن أنام في مكان أخر غير مكاني إلا بصعوبة بالغة ومع ذلك نمت في هذا المكان , وشبعت نوماً .. وانقضت تلك الأيام سريعة .. وكأنها سويعات قليلة, بل دقائق معدودة, وقبل أن أغادر المستشفى, أعطوني جوابان أرجع بهما إلي " الوحدة العسكرية ".. وصلتُ إلى كتيبتي , دخلت على البوابة, لمحني العساكر من بعيد التفوا حولي منهم من يقبلني, ومنهم من يضاحكني .. ومنهم من يسندني .. حتى وصلت إلى مكتب الأفراد ورآني الشاويش " فراج " فقام من مقامه وأجلسني فيه وسلم عليَّ ببسمة عريضة , ثم أمر العساكر بالانصراف إلى أماكنهم .. وإلا هم عارفين الذي سيحصل لهم .. أعطيته الجوابان, نظر فيهما وهز رأسه , وهمهم بكلمات لم يصلني منها شيء, ثم دفعهما إلى الشاويش .." محمد عبد الهادي".. وهو يقول له :

ـ خذ نزل دول عندك .. واعمل له تصريح مع اليومية الطالعة النهارده, بأسبوع نقاهة .. عشان الحق أمضيها من فوق .. قبل ما سيادة العميد يخرج .."..

يصفر القطار من جديد , معلنا عن وصوله لإحدي المحطات القادمة وهو يهدئ كعادته من سرعته ..

انتبهت لأجد الفتاة تنظر إليَّ نظرة فاحصة , وغامضة , حاولت تفسيرات لها فأعياني الأمر .. ساد المكان قليل من الصمت .. أردت أن أتعرف إلى أين وصل القطار .. أخرجتُ رأسي من النافذة .. مازال الليل جاثما .. والضوء خافتا.. والبنايات النائمة وسط الحقول التي ينبعث منها عبق التاريخ تظهر وتختفي سريعا , وعربات مسافرة علي الجسر ليلا , وصديقي مندمج في الحوار مع أم الفتاة التي تضحك من كلامه .....

لا أدري لماذا تذكرتُ أبي في هذه اللحظة , ربما لأني سأراه بعد سويعات قلائل .. وربما لأني اشتقت إليه كثيرا, أبي يبلغ من العمر سبعين سنة .. ولم يتقوس ظهره ولم ينحني إلا لله .. منذ وعيت على الدنيا .. وأنا أراه مثلاً أعلى لي, وركن شديد .. فهو يملك بداخله قلبا

كبيرا .. حنونا جدا , أبي طيب القلب, فقير لكن عنده عزت نفس, يحمل ملامح الأرض , وأخلاق القرآن ..

قبل أن أُسافر أخر مرة .. جلست لجواره تبادلنا أطراف الحديث, وقبل أن أرحل عنه وأودعه رأيت الدموع في عينيه وهي تترقرق , لتستوقف تفكيري, فلم أدري إلا وأنا قد ارتميت في صدره ليضمني بين ذراعيه .. كما كان يفعل معي وأنا طفل صغير, وأخذ يقبلني وهو يصارع دموعه, وكلماته راحت تتلاشى خلف صوته المتحشرج, حينها بكيتُ ولا أدري لماذا بكيت , وأخذت أقبل يده ورأسه, وهو يربت على كتفي بيده السمراء ذات العروق النافرة , ثم هزني وهو يقول لي , بصوت مُلئ جمالا وحنانا .. صوت لن أنساه أبدا .. إنه صوت أبي الطيب ..

ـ أنت خلاص بقيت راجل وكبرت يا ولد ... !

ـ .....

القطار لا يزال ينساب فوق شريطه الحديدي بكامل سرعته.. هديره يشق ظلام الليل ويمزق عباءة الصمت , وصوته يوقظ الحقول , يجري ينادي المدن البعيدة .. والناس في عربة القطار خف ضجيجهم وخفت صياحهم , فمنهم الصامت , ومنهم من نام , ومنهم من يتسامر بصوت خافت .. وباعة القطار في حركة دائبة , لا تنقطع ذهابا وإيابا , كل ينادي على بضاعته .. والبرد قد حول عربة القطار إلى ثلاجة .. نظرت في ساعة معصمي .. كانت تشير لمنتصف الليل .. وصديقي لا يزال يضحك مع أم الفتاة .. وامرأة أخيها مندمجة في الحديث مع بعض الشباب .. في الكرسي المجاور, والفتاة مازالت في شرود .. وأنا مشدود نحوها , بقوة هائلة لا أستطيع الانفكاك عنها , وأريد أن أتحدث معها , ومنتظرا ريثما تعود من شرودها الذهني , حتى أستطيع أن أفتعل حديثا معها من جديد .. أخرجت تذكرة السفر قرأتها .. ريثما تعود تلك الفتاة .. من عالمها الخيالي الذي ذهبت إليه مرة أخرى بعيدا عني .....

****

النافذة المكسورة

الوقتُ يُشير إلى منتصف الليل , والجو شتاء , والقطار ممتلئ عن آخره بالركاب, احتقنت , وقفت, مددت بصري إلى آخر العربة, وأنا انتظر أحد البائعين حتى يمر من أمامي, لكي أتمكن من الذهاب إلى دورة المياه , أوصيت صديقي بأن يحافظ على مكاني حتى أعود إليه , ...

أحاول أن أتفادى الزحام, أرفع قدمي , وبحذر شديد, أضع الأخرى, حتى لا أؤذي أحد النائمين في ردهة عربة القطار, البعض يغط في ثبات عميق, والبعض الأخر منشغل بحاله والباقي قاعدون في الممر منهم من ينظر إليَّ وأنا كنت في طريقي إلى حمام القطار .....

القطار مزدحم عن آخره .. ولا تكاد تجد فيه موضع قدم .. والعربة تشبه علبة السردين, أو علبة الكبريت , وأنا محتقن , ومتعب , ولا أقوى على السير , ولا قادر على الصبر حتى استطعت أخيرا أن أصل إلى دورة المياه التي في آخر العربة , كانت مغلقة بإحكام من الداخل ,

حاولت أن أفتحها حتى أدخل لأقضي حاجتي, فلم أستطع , وأنا لم أستطع الانتظار أكثر من هذا ومن بالداخل أغلقوا عليهم الباب جيدا, أخذت أطرق عليهم الباب حتى يفتحوا لي فلم يرد عليَّ منهم أحد .. فاشتد غضبي , وغيظي , وحنقي عليهم وأخذت أضرب عليهم الباب بقوة .. وأنا أكيل لهم ولآبائهم السباب والشتائم حتى يفتحوا لي الباب .. فأنا لم أستطع أن أتحمل أكثر من هذا .. بعض الركاب يرفع رأسه .. والنائمون لم ينتبهوا .. واكتشفت في النهاية , بأنني لست الوحيد الذي ينتظر من بالداخل كي يخرج ليقضي حاجته .....

أخذت الأصوات تتعالى, ونحن نتبادل الألفاظ النابية ,ما يربوا على ربع ساعة تقريبا .. وضحكات من بالداخل تستفزني , والتعليقات السخيفة تبعث على الغضب .. واحد من الركاب تطوع واستدعى مفتش القطار .. فطرق عليهم الباب بقوة .. وراح يهددهم , ويتوعدهم , إن لم يخرجوا بالأدب , من دورة المياه فورا , فسيوقف القطار في المحطة القادمة , ويسلمهم للشرطة , ويحمّلهم المسؤولية كاملة, وربما حبسهم أيضا .. وهنا بدأ الباب يُفتح شيئا فشيئا وما أن رآهم , حتى تفل عليهم, ولطم أحدهم علي خده بالقلم .. وهو يسألهم : ما الذي جعلهم يفعلون هذا..؟.. ويسألهم عن التذاكر ..؟. " ....

صمت الجميع ولم يبدوا جوابا .. أخرج الدفتر الصغير من جيبه .. فرَّ أوراقه من جديد .. حدّج أحدهم بنظارته المقعرة .. وهو يضع القلم فوق أرنبة أذنه .. والدفتر قد أسنده إلى صدره .. وهو يسأله بصوت قوي .....

ــ راكب منين .. ونازل فين .....؟

ــ .....

أخذ النقود منه .. وضعها في جيبه .. وأعاد القلم إلى يده .. وراح يخط بالقلم فوق الورق .. وهو يهمس نحوي .. ببسمة خبيثة كَسَت وجهه ..

ـ وأنت فين التذكرة يا دفعة ...

ـ .....

أخرجت له استمارة السفر.. هز رأسه , ولم يمسكها مني .. فقط , اكتفى بهز الرأس , وتلك البسمة الصفراء التي أمُجّها .. يبدوا أنه حفظ وجهي جيدا ..

مع السترة الميري .. وضعتها ثانية في جيبي .. ووقفت مكاني .. أنتظر دوري في الدخول .. وأنا أكاد أنفجر.. يتجاوزنا مفتش القطار.. وهو يكيل لهم السباب .. ويتوعدهم إن عادوا لمثلها .....

البرد شديد , وقارص , والهواء يضرب وجهي من نافذة القطار .. وأنا محتقن ...

تحسست التصريح الذي أدخلته في جيبي توا.. رميت ببصري من النافذة المكسورة خارج القطار , كل شيء يبدو هادئا وجميلا , البيوت النائمة وسط الحقول تنبعث منها الأضواء الخافتة .. وأعمدة النور المصطفة على جانبيّ الجسر الحربي والترعة الموازية لشريط القطار .. والجسر الذي لا يخلو من بعض العربات التي تظهر فجأة , ثم تختفي , والحقول التي نامت بعيدا في المدى في سكون جميل .. نظرت في ساعة معصمي .. لأتعرف على الوقت .....

باقي من الزمن سويعات قلائل .. وأكون في بلدي الحبيبة " طهطا " لا بأس ....

" أجمل لحظات عمري هي التي أكون فيها عائدا من السفر , فأنا أكره الغربة .. ولحظات الفراق .. وأيضا لحظات الانتظار , لا أحبها أبدا .. كثيرا ما عرض عليَّ بعض الأصدقاء في مركز التدريب بالجيش .. أن أذهب لأقضي وقتا لطيفا معهم .. يوما أو بعض يوم في بلادهم فهناك الجو جميل جدا وساحر .. والطقس أكثر من رائع .. هكذا كانوا يقولون لي , فأهاليهم من شدة الحديث عني .. يتمنون رؤيتي ـ على حد زعمهم ـ ويشتاقون .. لكني كنت أرفض , وبشدة .. فأنا لولا التجنيد ما خرجتُ من بلدي أصلا .. فأنا ما أصدق أن آخذ التصريح من" الكتيبة " وأقول يا :" أبو فكيك " علي بلدي طوالي , بلدي الطيبة الحبيبة " طهطا " التي أعشق ثراها , وأعشق أرضها , وسماها , ونيلها , ونخيلها , وجوها , وهواها , ومبانيها وأهلها الطيبين .. وكل شيء فيها .. لقد أمضيت جُلَّ عمري فيها .. فمنذُ وعيتُ علي الدنيا .. وفتحت عيناي على أرضها الخضراء .. التي كانت تمتد بامتداد البصر , قبل أن تغزوها المباني الخراسانية , والأبراج التي تشق عنان السماء , وتحجب الرؤية , والانفجار السكاني الذي حدث فيها , والزحام الذي لا يطاق , وأنا أعشقها " .....

أنتبه .. أسمع من يقول لي

ـ اتفضل دورك يا أستاذ ..؟!

ـ أنا ..؟!..

ـ تفضل ..؟!..

ـ شكراً ..!

الباعة الجائلون في القطار ما زالت أصواتهم مرتفعة لم تكل ولم تمل من النداء وهم يقطعون العربة ذهابا , وإيابا , بائع الشاي, والترمس , و" الكولا " والهدايا "الانتيكات ".. والسندوتشات .. الخ ..

وكأن القطار انقلب , وصار بقدرة قادر إلى " سوبر ماركت " أو سوق كبير متحرك .. أو" مول كبير" وكل ينادي على سلعته , وبضاعته , بطريقته الخاصة ... وأنا أحاول أن أعود إلى مكاني .. أشق الصفوف بصعوبة بالغة , فالإضاءة خافتة , بل تكاد تكون شبه معدومة وبمهمة قتالية .. أرفع قدم , وأحط أخرى .. حتى لا تأتي على أحدٍ نائم , في ردهة القطار, أو جالس لم يصبه النوم بعد, وهم ينظرون إليّ نظرات حذرة, وأنا ممسك بالحديدة التي فوق الكراسي .....

يقترب القطار من أحد المحطات , يهدئ من سرعته يقوم بعض الركاب يتهيئون للنزول , يستيقظ النائمون في ردهة القطار , ومن هم خلف الباب .....

أخيرا وصلت مكاني بسلام .. وقفت قليلا أعدّل من هندامي .. ريثما يقوم الرجل الجالس مكاني , وأنا أرفع عينيَّ على حقيبتي التي فوق الرف .. حتى أطمئن بأنها لم تزل في مكانها.. وقد وقف القطار على الرصيف, هنيهة, نزل أناس كثير , وصعد أكثر .. والصقيع يصفع الوجوه .. والقطار يزمجر , يريد الإذن بالانطلاق ..

فقط تغيرتْ بعض الوجوه , وبقي الزحام كما هو , والباعة الجائلون مازالوا يدفعون الناس , وينادون على من يشتري منهم .. وعاد كل إلى ما كان عليه ...

جلستُ مكاني , أنظر إلى الفتاة .. والحوار مازال متصلا بين صديقي , وأم الفتاة .. ولكن خبأتْ جذوته بعض الشيء , أما الفتاة فكانت منهمكة في صحيفتي التي تركتها تتطلع فيها .. أغلَقَتْ الصحيفة .. ومدّتها نحوي , وهي تبتسم ...

ـ خليها معاكي .. أنا خلاص قرأتها...

ـ لا لا , شكرا , قرأتها خلاص ...

ـ بتدرسى ...؟

ـ في الجامعة ...!

ـ في سنة كام .....؟

ـ سنة ثانية أداب ..

ـ .....!

وأخذ الحوار يطول ويمتد بيننا بطريقه عفوية وتطرَّق إلى كثير من المواضيع حكت لي عن حياتها وعن أبيها ـ مدير المدرسة ـ الذي مات وهي صغيرة ولم تره .. وعن أخوها الذي رباها ويريد أن يزوجها من صديقه الثري كي يضمن لها حياة كريمة بالرغم أنها لا تحبه .. وكذا يكبرها بكثير .. وكيف كان يحضره معه في كل مرة ليراها , ويحادثها .. وهي لا تريده .. وتريد أن تكمل تعليمها الجامعي .. وعن أمها التي لا حول لها ولا قوة .. ثم همست لي بصوت رقيق ناعم :

ـ كنت أتمنى أن ألاقي إنسانا مثلك لينقذني من هذا الشقاء والعناء الذي أعيشه .

ابتسمتُ في نفسي , وشعرتُ بالسعادة والفخر, والفرح, فهذه أول مرة .. أسمع فيها هذا الكلام .. وأنا أيضا لا أدري لماذا حكيت لها حكايتي .. مع تلك الفتاة الريفية التي جاءت إلى مدينتنا.. وسكنت في البيت المتاخم لنا .. وعن علاقة الحب التي ربطت قلبينا .. وكيف جمعتنا الحياة .. وكيف فرقتنا .. وكيف كانت قصتي معها .. وكيف .. وكيف .. وكيف .....

قصصتُ عليها قصتي وأنا لا أدري لماذا ..؟ .. ربما لأنها كانت تشبهها كثيرا..

أو ربما لأني دائما أحب أن أحكي عنها .. أو ربما شيئا آخر لا أدري ما هو .....

وضحكتُ في نفسي من حكمة الأقدار .. وكيف هي تشبها إلي درجة رهيبة لا تصدق .. ونسيتُ الوقت , أو تناسيته .. وبدأ الهدوء يلف المكان .. والنوم يسري ويتسرب في أرجاء العربة حتى أني تثاءبت فجأة, فضحكتْ واتهمتني بأني كتكوت صغير .. ولما سألتها عما تقصد .. قالت وهي لم تزل تضحك ..

ـ بتنام بدري مثل الكتكوت ..

نظرت في ساعة يدي كانت تشير إلى منتصف الليل.. قلت لها:

ـ على فكرة أنا بعشق الليل والسهر

ـ ما هو باين عليك

فرددت عليها وأنا أتثاءب , محاولا طرد النوم الذي هجم عليَّ فجأة ..

ـ أنا بس مرهق شوية عشان ما نمتش بقالي يومين

ـــ يومين يا مفتري ...؟

قالتها باستغراب , وشيء من الاندهاش .. والدهشة تملؤ عينيها.. وبقايا الضحك عالق فوق وجنتيها.. وواصلتُ أقول لها :

ـــ في الجيش مفيش نوم ...

ـ تعرف أنا كان نفسي أكون ولد وأدخل الجيش , ممكن أتطَّوع , ينفع ...؟

ـ اه ينفع .. بس ازاي , وليه ..؟!..

ـ مش عارفة بس نفسي أدخل الجيش وخلاص .. يمكن عشان بحب بلدي ..؟!

ـ ومين فينا لا يحب بلده ولا جيش بلده

قلتُ لها ذلك وأنا أرجع بجسدي للوراء علي المقعد .. وقد حضر في رأسي بقوة الشاويش " فراج ".. ومركز التدريب .. والجبل الأحمر.. والكتيبة التي أنا بها .. وأول يوم دخلت فيه الجيش .. كان يوما لا ينسى .. يوم محفور في الذاكرة .. لن أنساه أبدا ما حييت .. أذكره جيدا

" كنت دفعة يناير .. في عز طوبى .. ذهبت إلى مركز التجنيد, لإجراء الكشف الطبي علينا وهناك جردونا من الثياب .. إلا ما يستر العورة .. وأخذنا نتنقل من مكان لمكان .. ومن مكتب إلى مكتب .. وأجروا علينا كل الفحوصات , والكشوفات الطبية .. وفي الأخير نادوا علينا .. ليسمع كل منا سلاحه .. استلمت الكارنيه .....

" شؤون معنوية ".. هذا كان سلاحي .. لا بأس .. ثم ذهبنا إلى محطة القطار .. ومن أراد أن يذهب بمفرده ذهب , بعدما أعلموه بالمكان الذي سيلتقي بهم هناك ...

وعند غروب الشمس ذهبنا .. وكنا في شهر رمضان .. ونحن صيام .. القطار يسير ببطء .. يركن في كل محطة والساعة تقترب من الواحدة صباحاً .. نزلنا مع مندوب التجنيد الذي أجلسنا في مكان واحد , تحت محطة مصر.. وطلب منا عدم الذهاب في أي مكان .. وهو يقول لنا :

ـ من النهارده بقيتو عساكر .. الذي يهرب منكم سيحاكم محكمة عسكرية .."..

وأخذ يقول لنا أشياء أخرى لم أتبين منها إلا أنني أصبحت عسكريا .. ومن الآن فصاعدا محاسَب عن كل تصرفاتي .. ومن يهرب يتحمل نتيجة هروبه .. نصف ساعة وجاءت الأتوبيسات الفاخرة والتي تشبه الأتوبيسات السياحية, تدافعنا ليحصل كل واحد منا على مقعد في الأتوبيس .. ثم انطلقت بنا العربات إلى وجهتها وكان أغلبنا ينظر من الشباك .. وقد أخذته الأنوار .. وأبهرته أضواء المدينة , بشوارعها المكتظة بالمشاة .. والعربات الفارهة .. والأبراج الضخمة , الفخمة , واليفط العريضة للممثلين, والإعلانات للسلع والمنتجات التي لا يرونها إلا عبر الفضائيات .. حتي خرجت الأتوبيسات من المدينة , ودلفت بنا في الصحراء .. حيث الظلام الدامس, والمجهول الذي ينتظرنا, والحياة التي سنعيشها هناك في قلب الصحراء .. حياة الميري التى تصنع الرجال .. وتنتج الأبطال " .....

ما زلت أذكر تفاصيل هذا اليوم البعيد .. وذكرياته الجميلة .. مستحيل أن أنساها ..

لا أدري لماذا يحضرني الآن الشاويش" فراج" وهو واقف أمامنا في أرض الطابور وهو يقول لنا بصوته القوي , الأجش ..

ـ الجيش قال لك اتصرف .. سامع يا عسكري يا بعكوك ..

الساعة الآن بعد منتصف الليل .. والقطار يطوي الحقول طيا .....

بعد ساعتين من الآن سأكون في بيتنا .. ترى هل سأجد أبي مازال مستيقظا حتى الآن .. ـ " لقد اشتقت إليك كثيرا يا أبي .."...

الفتاة تكلمني , فيأتيني صوتها العذب , لينتشلني من ركام الذكريات .. والتداعيات المزدحمة في رأسي .. وبصوتها الجميل , تقول لي :

ـ أنا نازلة المحطة الجاية .. اتفضل معانا ..

ـ ياه حالا كده .. مر الوقت سريعاً ..

ـ الأوقات الحلوة بتمر بسرعة .....

ـ كنتُ أتمنى أن ألقاكِ في وقت آخر مختلف ..!!

تقف , تتهيأ للنزول, وتطلب من أمها وامرأة أخيها أن يستعدا .. نظرت أمها لي نظرات غامضة, لا أعرف مغزاها , ولا معناها .. وامرأة أخيها تبدأ في جمع أشيائهم, وهى تطلب مني أن أساعدهم في إنزال حاجياتهم من فوق الرف .. يتطوع معي صديقي بالمساعدة .. فأطلب منهم أن يهدءوا قليلا, فالوقت لم يزل فيه متسع, والقطار باق على وصوله لرصيف المحطة ربع ساعة .. قلت لها ذلك .. وأنا أنظر في عينيها السوداوين الكحيلتين الحزينتين في نفس الوقت .. وفجأة ودون سابق إنذار .. وأنا أنزل لهم أشيائهم التي فوق الرَّف , رأسها تقترب من رأسي فأشتم رائحة رأسها وفمها ذو النكهة اللذيذة .. وهي تقول لي :

ـ ممكن تبعت لي جواب بعد ما توصل

ـ حاضر بس العنوان

ـ .....

كتبت لي العنوان , لأحفظه في جيبي , وذاكرتي , ورحت أهز لها رأسي بالإيجاب ..

التفت إلى صديقي الذي لم ينتهي بعد من الحديث مع أم الفتاة , وقد ألقتْ إليه السمع .. وامرأة أخيها التي قد اندمجت مع الشباب في المقعد المجاور في لعبة الكتشينة ..

وكان صوت المسجل ينبعث منه الغناء " أم كلثوم " وهي تشدو بصوتها الكروان .....

الليل ودقة الساعة تصحي الليل

وتفيد بإيه يا ندم يا ندم ..

وتعمل ايه يا عتاب ..

طالت ليالي السهر ..

وتفرقوا الأحباب ..

تفرقوا الأحباب ..

وبقينا بعاد , بعاد ,

والنار بقيت دخان ورماد .. " .....

يُخرج صديقي علبة سجائره يعطيني واحدة بعد ما أشعلها لي .. أضعها في فمي, سحبت منها نفسا عميقا ثم أُخرجته في الهواء .. يصل الدخان إلى وجه الفتاة .. تكح .. تسعل حتى دمعت عيناها .. وهي تهوّي بالصحيفة الورقية التي أعطيتها إياها .. وهي تقول لي :

ـ أنت بتسفيد إيه من الزفت ده

ـ ولا حاجة

ـ طاب ما تبطلها يا أخي

ـ فكرك كده

ـ .....

يقترب القطار من المحطة .. المباني النائمة في الظلام تبتعد .. وتظهر المباني النائمة وسط الأنوار الكاشفة .. يُهدِّئ القطار من سرعته .. يُصفِّر ليعلن عن نفسه , ووصوله .. يتهيأ النازلون , يستعدون للهبوط , بجوار الباب يقفون .. تنهض أم الفتاة .. تنادي على زوجة ابنها الحامل , وتطلب من بنتها بأن تمسك بالحاجة جيدا .. تنبهها ثانية .. وتحذرها وهي نازلة من القطار حتى لا تنزلق قدمها , الفتاة تنهض تُمسك بامرأة أخيها.. تمتد الأيدي بالسلام أقف أسلم عليهم .. وأنا أشكرها على هذا اللقاء الجميل الذي رتبه لنا القدر سلفا

يقف القطار على المحطة يقفز بعض الركاب على الرصيف ولا ينتظرون , أذهب معهم إلى باب القطار .. أساعدهم في النزول , وأنا أتمنى أن تطول الدقائق المتبقية , وتمتدُ بيننا إلى ما لا نهاية , وتمنيتُ أيضاً لو كانتْ تلك الفتاة من بلدي, أو أكون أنا من بلدها , حتى أراها كل يوم .. وربما تطورت العلاقة بيننا إلى درجة الارتباط بها .....

بضع دقائق مرت عليَّ بعمر الكون , وعيناي في عينيها حتى أتشبع من هذا البريق الأخَّاذ والجمال الرباني الساحر الذي يَطُلُّ من عينيها الكحيلة حتى غبتُ عن الوجود ورحت أسرح بخيالي .. تخيلتها .. وقد تزوجتها زوجتي , وهي معي في البيت , وقد نهضنا على التو من أمام التلفاز بعد مشاهدة " فلم السهرة " ....

يآآه حلم جميل .. تمنيتُ أن يكون حقيقة .. حُلم أظنه مستحيلا ..لأننا سنفترق الآن .. ومن يدري, لعلنا لا نلتقي مرة آخري .. ولا يرى أحدنا الآخر مرة ثانية.. لكن ما أجمل الحُلم .. وما أجمل أن تحلُم .. والأجمل منه محاولة تحقيق الأحلام ....

يقف القطار على رصيف المحطة .. أنزل معهم على الرصيف أنا وصديقي .. وقد أنزلنا لهم ما معهم من أشياء .. وأنا أمسك يدها , كي أساعدها في النزول ....

"ما أروع يدها البضة , وما أجملها , وما أحلاها , وما أطراها, وأنداها , وأعطرها من يد .. أخالها لو وضعتْ على مريضٍ لشُفي .. ولو مسحتْ بها علي ميتٍ لقام في الحال نشيطا .. ولكنها قتلتني أنا بطراوتها ونداوتها .. " .....

وقفت أمامها ـ على رصيف القطار ـ ساهمٌ , تائه , وأنا أودعها .. وقلبي يعصره الحزن والألم لفراقها .. وللحظة مجنونةٍ , دارت فكرة مجنونة في رأسي , فكرتُ أن أترك صديقي والقطار وكل شيءٍ , وأذهب معهم, حتى أعرف بيتها ـ على الأقل ـ وكنت من الممكن أن أفعلها , لولا أن كان الوقت متأخرا جدا, وأنا لا أدري أين سأبيت, كما أنه لا يصح عندنا في مجتمعنا الشرقي ـ فضلا على أننا صعايدة ـ كما أنه لا يصح , ولا يجوز بأن نُدخل أحدا غريبا لا نعرفه في دارنا بالليل .. فضلا عن المبيت في البيت .. وسألت نفسي ..

ـ ماذا سيقول الناس بعدما يروني وأنا خارج من عندهم .. وما أدراني بأنهم سيجعلونني أبيت عندهم .. ولم لا يكون تمسكهم بي مجرد مجاملة لا أكثر .. لأني ساعدتهم في سفرهم هذا.. كما أن الوقت متأخر جدا.. ولم .. وكيف .. ولماذا ..؟!.

وأشياء أخرى كثيرة دارت في رأسي .. وأنا واقف أنظر إليهم وهم ينظرون .... فجأة سمعت صوت صديقي يناديني من جوف القطار وقد ابتعد صوته قليلا ....

ـ القطار سحب , أركب بسرعة ... القطار سيفوتك ...

انتبهتُ , التفتُ , كان القطار يتحرك من على المحطة , أفيق لأجد نفسي واقفا بمفردي على الرصيف .. والقطار يأخذ سرعته , واشتدت سرعته , جمعتُ عقلي في ثوانٍ معدودة , شحذت همتي .. وجمعت قوتي .. وأخذتُ قراري , وانطلقت أجري خلف القطار .. أسرعت , ارتديت أخر عربة, وأنا على آخر نفس, أرمي بنفسي في القطار, والناس تنظر إليَّ في إشفاق , ولوم .....

ـ الحمد لله القطار كان سيتركك

قالها صديقي , وهو يلكزني في صدري , ويضحك ضحكا هستيريا , وأنا أبتسم له , وأضحك على نفسي , في نفسي مما جرى لي , ومما حدث معي ..

عُدتُ إلى مكاني بجوار النافذة المكسورة جلستُ , في وجوم , وشرود تام , أسترجع كل ما مرَّ وما دار, وما كان .. وصديقي يوبخني تارة , ويضحك عليَّ تارة أخرى .. وهو يقول لي :

ـ أنت مجنون القطار كان سيفوتك , وأنت واقف ولا هنا ... ؟!!...

ـ .....

لم أرد عليه .. فقط .. أخرجت الراديو الصغير " الترانزستور" الذي في جيبي .. أدرت مؤشره ....

كان صوت " أم كلثوم " ما زال يصدح , ويشدوا بالغناء ..

" الليل ودقة الساعة تصحي الليل ..

والغربة , والتنهيد لسه ماهُمش بعيد ...

وتفيد بايه يا ندم , يا ندم

وتعمل ايه يا عتاب ..

طالت ليالي السهر وتفرقوا الأحباب

وتفرقوا الأحباب .. وبقينا بعاد بقينا بعاد .. "... و ....

****

الفهرس

رواية اجازة ٣
الشاويش فرَّاج , ومحمد عبد الهادي ٧
أسطوانته الخامسة ١٧
رصيف رقم ١١ ..... ٢١
سكة سفر ٢٨
بائعة الشاي ٣٤
عنبر المستجدين ٣٩
آدم و حواء ٤٣
حسن ونعيمة ٤٩
النافذة المكسورة ٥٧
الفهرس ٦٥